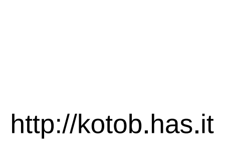
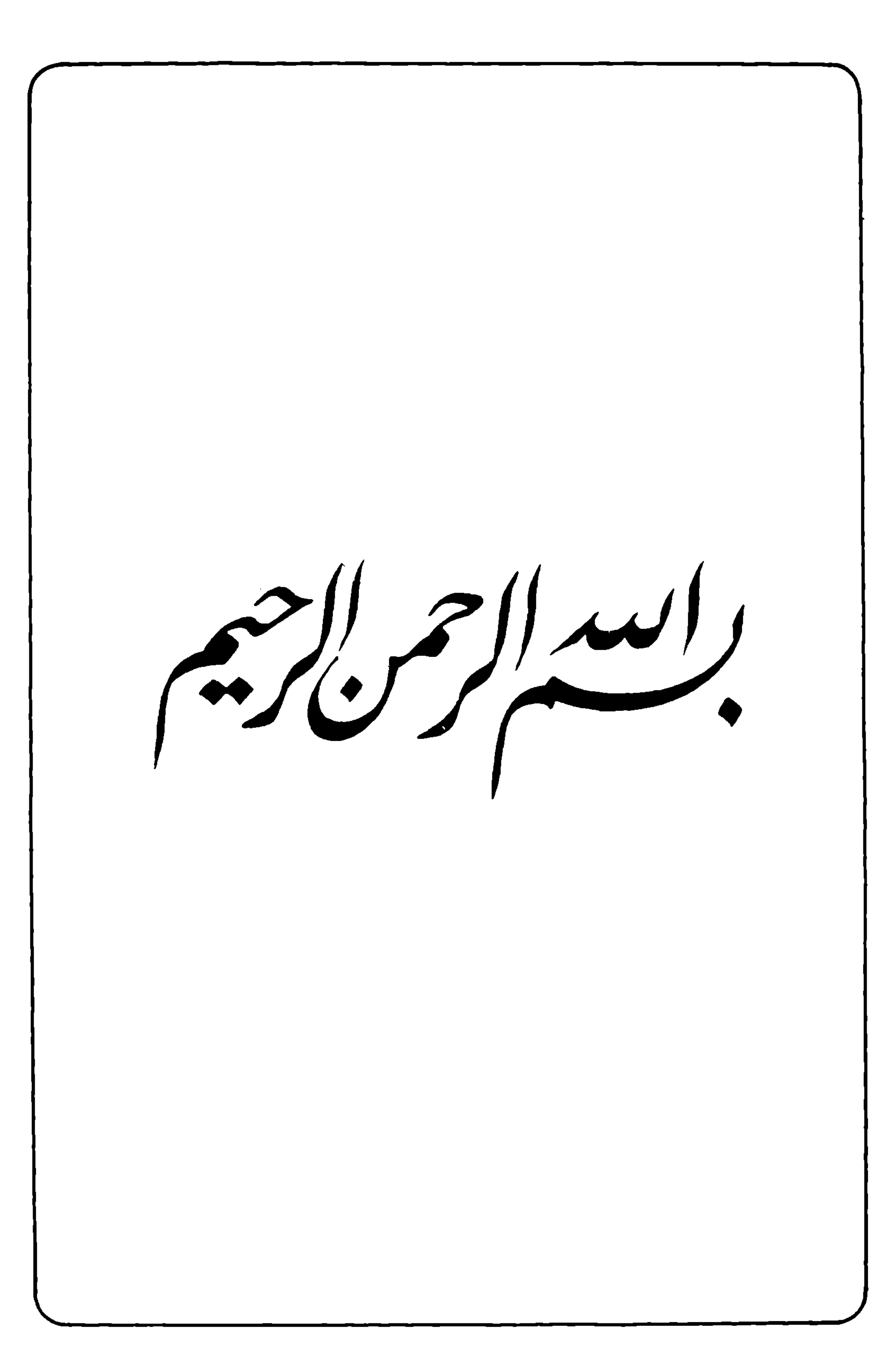
(١)

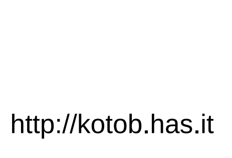
سلسلة القرآن والعلم

للدكتور أحمد شوقي إبراهيم

أطوار الخلق في تاريخ الإنسان




بسم الله الرحمن الرحيم

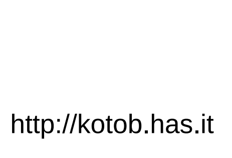

http://kotob.has.it

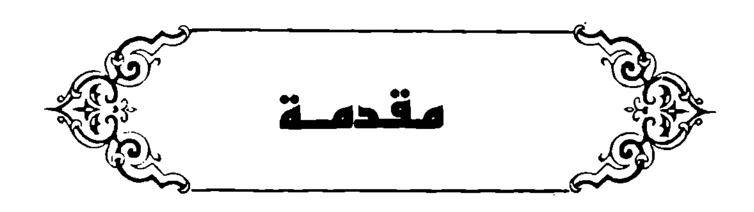
(١)

سلسلة القرآن والعلم

للدكتور أحمد شوقى إبراهيم




http://kotob.has.it



مقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

والصلاة والسلام على سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم وبعد ،

فهذا الكتاب « أطوار الخلق فى تاريخ الإنسان » أول كتاب فى سلسلة « القرآن والعلم » وندعو الله تعالى أن يعيننا على إتمامها فى نحو خمسة عشر كتابا .

وأطوار خلق أى إنسان أطوار عديدة تبدأ فى خلقه فى صلب آدم .. وتنتهى فى حياته فى الدار الآخرة .. ولقد تحدثنا فى هذا الكتاب عن كل طور من أطوار خلق الإنسان .. وعن بعض النظريات العلمية التى تحدثت فى هذا الموضوع ، وبينا الخطأ فيها والصواب .. ثم كان الحديث عن أطوار خلق آدم وزوجه وتاريخ حياتهما . وما حدث فيها من أحداث .. وبعد ذلك تحدثنا عن أطوار خلق كل إنسان فى هذه الحياة الدنيا ، ابتداءً من خلقه فى بطن أمه .. وما يحدث للأجنة من أطوار عديدة فى الخلق .. وما يحدث فى كل طور منها من أحداث .. ثم كان الحديث بعد ذلك عن أطوار خلق كل إنسان منا فى حياته الدنيا ، ثم عن تاريخه وما يحدث له بعد الحياة الدنيا من أطوار فى الخلق ، معتمدين فى ذلك على ما ذكره القرآن والحديث النبوى .

إن تاريخ الإنسان تاريخ طويل جداً .. ويشمل دورات من الموت والحياة ثم الموت والحياة .. إلى أن ينتهى الإنسان إلى حياة لا موت بعدها أبداً .. وما فترة حياته فى الدنيا إلا مرحلة قصيرة من مراحل تاريخه الطويل فى هذا الوجود .. وكثير من أطوار خلق الإنسان من

الغيبيات .. ولا مجال لاجتهاد علم الإنسان فيها ، وليس هناك من مصدر للعلم فيها إلا الوحى الإلهى فى القرآن والحديث النبوى . لذلك كان اعتمادنا فى معرفة تاريخ الإنسان المطوى فى صفحات الغيب على المصدر العلمى الوحيد عنه ..

ونقرأ فى الكتاب كيف بدأ تاريخ خلق الإنسان بخلق آدم .. وكيف خلق الله تعالى الجنس البشرى كله فى جسد آدم ، وعما جاء عن كل ذلك فى القرآن العظيم والحديث النبوى الشريف ..

ولعل علم الإنسان بتاريخ وجوده وأطوار خلقه يوقظه من غفلته فى الحياة الدنيا ، فلا ينكب عليها ولا يجعلها كل همه .. فما حياته فى الدنيا إلا كعابر سبيل .. ويجد لزاما عليه أن يعمل لأطوار حياته القادمة وتاريخه فى المستقبل ، ويستعد لتحمل مسئولياته الكبيرة فيها .. فلا يوقع نفسه فى حياته الدنيا فى أخطاء تعود عليه بالضرر فى حياته فى الآخرة .. تلك الحياة الخالدة التى لا يموت بعدها أبداً .. ويحيا خالداً إما فى جنة وإما فى نار .

والسلام على من اتبع الهدى ●

الدكتور أحمد شوقى إبراهيم

دورة الموت والحياة فى الخلائق

قدّر الله تعالى الموت والحياة فى الخلائق جميعا . . فالموت تعقبه حياة . . والحياة يعقبها موت . . ثم حياةً . . ثم موت . . ثم حياة . . وهكذا . . إنها دورة مستمرة للموت والحياة فى كل نوع من الخلق فى الحياة الدنيا . .

وفى داخل جسم كل كائن حى نجد أن الموت والحياة يحدثان معاً ويسيران جنبا إلى جنب . . فالحياة تخرج من الموت . . والموت يخرج من الحياة . . ونجد أمثلة على ذلك فى عمليتى الهدم والبناء . . الهدم موت . . والبناء حياة . . **وخروج الحى من الميت** نراه فى خروج الخلايا الحية من الخلايا الميتة .. وفى خروج النبتة الحية النامية .. من النواة الجافة التى لا نرى نحن فيها أثرا للحركة والنمو .. وخروج الميت من الحى نراه فى خروج البذرة الجافة التى لا نرى فيها أثراً لنشاط أو حياة . . من النبات الحى المتحرك النامى . . كما نراه أيضاً فى خروج الخلايا الميتة من جسم الكائن الحى . .

وقد يكون ذلك من بعض المعانى فى سورة الأنعام ٩٥ فى قول الله عز وجل :

﴿ إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى يُخْرِجُ الْحَىَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَىِّ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ ﴾ .

والموت ضرورى للحياة . . كما أن الحياة ضرورية للموت . . فكيف كان ذلك ؟ . . إننا لو افترضنا أن الله تعالى لم يقدّر الموت على الخلائق فى الحياة الدنيا . . لحدثت نتائج تستحيل معها الحياة على هذه الأرض . . نأخذ مثلا على ذلك فى الإنسان . تنقسم الخلايا فى جسم الإنسان كل لحظة من اللحظات . . فلو لم تمت الخلايا القديمة واستمرت حية مع الخلايا الحية الجديدة . . فسيكبر

جسم الإنسان كل يوم أكثر من اليوم الذى سبقه . . ويأتى عليه زمن يبلغ جسمه حجماً بالغ الضخامة تستحيل معه الحياة للناس فى هذه الأرض . .

والأمر نفسه بالنسبة لسائر الحيوان . . وسائر النبات . . وأنواع الخلائق الأخرى . . لذلك قدر الله تعالى الموت والحياة لتستمر الحياة فى هذه الأرض . .

واستمرار دورة الموت والحياة مرتبطة بالتناسل والتكاثر . . فتموت أفراد وأجيال . . وتحيا أفراد وأجيال أخرى . . وتستمر الحياة إلى ما شاء الله . . وهذا يعطى الحياة معنى ورونقاً وجمالاً . . وكيف يكون ذلك ؟ . .

حتى نفهم ذلك . . نفترض أن الأفراد لا تموت . . ماذا يحدث حينئذ ؟ . . لن يكون للتناسل والتكاثر أى ضرورة . . ولا أى معنى . . ولن يطلبه أحد . . ولن يسعى إليه إنسان . . فتصاب الحياة بالركود . . وتصاب الأفكار بالجمود . . ويتوقف النشاط فى كل مجتمع . . ويتوقف العمل فى الحياة . . وقد صارت بدون هدف . . وبذلك تفقد الحياة معناها ورونقها وجمالها . .

لذلك كان تقدير الله تعالى أن يموت القديم ويحيا الجديد . . ويخرج الحى من الميت ويخرج الميت من الحى . . وذلك يعطى الحياة معناها . . ويحدد أهدافها . . ويرسم معالمها . . ويبث فى الأحياء الدافع للحركة . . والحافز للنشاط . . لأنهم لو كانوا فى الحياة الدنيا خالدين . . ماقاموا لعمل من الأعمال . . وما تحركوا لبلوغ هدف من الأهداف . . وما اهتموا بنسل وأولاد من أصلابهم . . ولصارت الحياة بلا معنى وبلا هدف . . وبلا مبرر . .

إن دورة الموت والحياة حقيقة فى كل خلق من المخلوقات . . من أول الفيروس إلى الإنسان . . ومن أول الذرة إلى المجرة . .

وإذا نظرنا إلى الكائنات الحية . . لوجدنا أن دورة الموت والحياة فى جسم كل مخلوق حى . . تقوم على نظام محدد . . وقانون عام واحد . . تمثله العوامل الوراثية الموجودة فى أنوية خلايا الأجسام . . ولكل نوع من الخلق نظام وراثى

مميز له . . وخاص به . . وهو نظام فى كل الأنواع لا يتغير أبداً . . وينتقل من جيل إلى جيل بدون تفاوت . . وبدون اختلاف . .

وتحدث طفرات وراثية تغيّر بعض الصفات الخلقية فى أفراد النوع . . ولكنها لا تغيّر النوع مطلقا . . الطفرات الوراثية قد تغير الطول أو تغير اللون أو تغير الملامح . . أو تسبب بعض الأمراض . . ولكنها لا تغير نوع المخلوق نفسه أبداً . . والطفرات الوراثية من آيات الله تعالى فى خلقه . . ومن إبداعه فى صنعه . . لأنها تضفى على أفراد كل نوع من الخلائق ملامح مميزة له . . ومعنى جديداً ورونقاً وجمالاً . . ولو كان الناس جميعاً صورة طبق الأصل فى كل الملامح والصفات والطباع والخصائص . . لفقدت الحياة الإنسانية معناها ورونقها وجمالها . . وقد يكون كل ذلك من بعض المعانى فى سورة الروم (٢٢) فى قول الله عز وجل :

﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِلْعَالِمِينَ ﴾ . .

وكل خلية فى الجسم تحمل شفرتها الوراثية التى تحدد كلَّ معالمها وزمنها البيولوچى الذي تحيا فيه وتموت . . ولكل خلية حية عمر بيولوچى معين . . يختلف عن الأعمار البيولوچية فى الخلايا الأخرى فى الجسم . .

والعوامل الوراثية المسئولة عن الصفات الخلقية فى الجسم قد تصل إلى مائة ألف عامل وراثى فى جسم كل إنسان . . وهى محمولة على الشريط الحلزونى للحامض النووى . . والحامض النووى يكوّن الكروموزومات أو الصبغيات الموجودة فى نواة كل خلية ، وبالرغم من أن النظام الوراثى نظام واحد فى الخلائق جميعا إلا أن العوامل الوراثية تختلف فى نوع من الخلائق عن النوع الآخر . . فهناك وحدة فى نظام الخلق . . ولكن تختلف الصفات والخصائص لكل نوع من الخلق . . وتميزه عن غيره . . تمام التميز . . وتختلف الصفات الوراثية فى كل نوع عن الصفات الوراثية فى النوع الآخر تمام الاختلاف . .

ولا يتغير النظام الوراثى فى نوع من الخلق أبداً . . ويظل ينتقل من جيل إلى جيل يحمل نفس النظام الوراثى المميز للنوع . . ونفس الصفات الوراثية الخاصة به دون سواه . .

ولكل كائن حى دورة موت وحياة . . من النملة إلى الفيل ، ومن الحشرة إلى الإنسان ، ومن حيوان البحر إلى الطير فى السماء . . ولكل خلق من الجماد أيضاً دورة موت وحياة . . . فالجبال التى نراها الآن على سطح الأرض . . لم تكن كما نراها اليوم منذ عشرات الملايين من السنين . . فالجبال لها دورة حياة وموت كل ستين مليونا من السنين . . جبال تظهر وجبال تختفى . . وهكذا وجه الأرض فى حركة دائمة وتغير مستمر . . لاثبات فيه لشىء ولا دوام . . والأمر نفسه بالنسبة للكواكب والنجوم والمجرات . . فتموت نجوم وتتحول إلى سديم كونى . . ويخلق الله تعالى فيها نجوما جديدة ، وكواكب وليدة ، وبعض النجوم تنتهى حياتها إلى ثقوب سوداء تبتلع مادتها ، وتبتلع النجوم التى حولها إلى سماء أخرى لا نعلم عنها شيئا ، وتنتهى من السماء التى نراها ولا تعود أبداً . . لا دوام لشىء فى هذا الوجود إلا الله تبارك وتعالى الذى خلق هذا الوجود . . ونقرأ فى سورة العنكبوت (١٩) قول الله عز وجل :

﴿ أَوَ لَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِىءُ اللهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ إنَّ ذَلِكَ عَلَى اللهِ يَسِيرٌ . قُلْ سِيرُوا فِى الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللهُ يُنشِىءُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ .

وفى تفسير القرطبى أن المعنى : أو لم يروا كيف يُبدىء الله الثمار فتحيا ثم تفنى . . ثم يعيدها . . وكذلك يبدأ خلق الإنسان ثم يهلكه بعد أن خلق منه ولدا . . وخلق من الولد ولداً ، وكذلك سائر الحيوان . . فإذا رأيتم قدرته على الإبداء والإيجاد فى الدنيا ، لآمنتم بقدرته على الإعادة فى الآخرة . .

إن أى إنسان ذى عقل سليم ، ليدرك تماما أن فى بدء الخلق وإعادته فى الدنيا فيما نرى وفيما نعلم . . برهانا أكيداً على قدرة الله تعالى على إعادة الخلق فيما لا نرى وفيما لا نعلم . . ولله الخلق والأمر . . إن الله على كل شىء قدير .

دورة الموت والحياة فى الإنسان

إن دورة الموت والحياة حقيقة فى كل الخلائق الحية من الفيروس إلى الإنسان والحشرة ، إلى الحصان إلى الجمل . . ومن الحيوان فى أعماق البحار إلى الطيور فى جو السماء . . كل الخلائق تموت وتحيا ثم تموت وتحيا فى الحياة الدنيا . . والله تعالى يبدىء الخلق ثم يعيده . . ونقرأ فى سورة يونس ٣١ - ٣٤ يقول عز وجل :

﴿ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَن يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَن يُدَبِّرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴾ إلى قوله تعالى ﴿ قُلْ هَلْ مِن شُرَكَائِكُم مَّن يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ قُلِ اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ ﴾ . فالخلائق يخلقها الله عز وجل وتعيش ثم تموت . . ثم يخلق بعدها خلقا جديدا . . وفى سورة النمل ٦٤ يقول الله جل جلاله :

﴿ أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ . أَمَّن يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ .

ويجب أن نفهم أن القدرة على الإبداء والإيجاد تستلزم القدرة على الإعادة . . وإذا كان هذا يحدث فى الدنيا فيما نرى ونعلم . . فبالاستدلال العلمى والقياس ، نصدق ونؤمن بحدوثه فى الآخرة فيما لانرى . . ولأن الله تعالى أخبرنا بذلك . . ومن أصدق من الله حديثا .

وعن تاريخ الإنسان وأطوار خلقه ، ودورات موته وحياته ، نقرأ فى سورة غافر ١١ قول الله عز وجل : ﴿ قَالُوا رَبَّنَا أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ فَاعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ ﴾ .

نفهم فى الآية الكريمة أن الإنسان يموت موتتين ويحيا حياتين . . وبدأت الآية بذكر أطوار الموت الأولى ، وانتهت بذكر الحياة الثانية . . فلابد إذن أن يكون بدء تاريخ الإنسان بالموت . . ونهايته بالحياة التى لاموت بعدها . . وقال ابن مسعود وابن عباس رضى الله عنهما فى معنى الآية الكريمة ، كان الناس أمواتا فى أصلاب آبائهم ، ثم أحياهم الله فى الدنيا ، ثم أماتهم ، ثم أحياهم للبعث والقيامة . فهاتان موتتان وحياتان ، وفى نفس المعنى جاء فى سورة البقرة ٢٨ قول الله عز وجل :

﴿ كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَاتاً فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ إن دورات الموت والحياة الاثنتين ، دليل عند كل ذى عقل ، على حدوث البعث بعد الموت فى الحياة الآخرة .

ولقد كان الإنسان الأول على هذه الأرض آدم عليه السلام . . وجعل الله تعالى فى خلايا بدنه الشفرة الوراثية ، والنظام الوراثى المميز لجنس البشر . . ثم جعل من ذريته أمما وشعوبا وقبائل انتشروا فى الأرض وعمروها . .

وجعل الله تعالى لكل إنسان أجلا فيه يخرج إلى الدنيا . . وأجلا فيه يموت ، ويترك الدنيا ، ليحيا فى عالم آخر ، ويُبعث يوم القيامة . . حينئذ يكون من الخالدين ، لا يذوق الموت بعد ذلك أبداً . . ويحيا إما فى جنة وإما فى نار . .

إن تاريخ الإنسان تاريخ طويل . . ويدخل خلقه فى دورات وأطوار يتبع بعضها بعضا . . لانرى الأطوار الأولى فى الخلق قبل أن يخرج إلى الدنيا . . ولا نرى الأطوار الأخيرة بعد أن يبعث فى الحياة الآخرة . . ولكننا نرى جانبا قصيرا جدا منها فى هذه الحياة الدنيا . .

إن تاريخ الإنسان تاريخ طويل . . ولاتستغرق أطوار حياته فى هذه الدنيا إلا زمنا قصيراً جدا من تاريخ حياته الطويل . . وأن مثل حياته فى الدنيا مثل عابر سبيل كما أخبرنا رسول الله ﷺ إذ قال « كن فى الدنيا كأنك عابر سبيل » .

وقال ﷺ أيضا :

« وما أنا والدنيا إلا كراكب راحلة فى يوم صائف ، استظل تحت شجرة ساعة ، ثم راح وتركها » .

لقد بين الحديث النبوى الشريف أن تاريخ الإنسان فى هذه الدنيا ساعة . . وإن تاريخه ابتدأ قبلها . . وسيستمر بعدها أيضا . .

لقد بدأ خلق البشر بآدم عليه السلام وزوجه . . ولايمكن عقلا أن يكون هناك احتمال آخر ، ولا يمكن من الناحية العلمية أيضا أن يكون غير ذلك . . إن أى مخلوق حى إنما جاء من أب وأم . . وكل منهما جاء من أب وأم . . وكل منهما جاء من أب وأم . . فإذا سلسلنا الأمر ملايين السنين إلى الوراء لوقفنا عند أب وأم . . لا أب ولا أم لأى منهما . . ولا يمكن أن يكون خلق الإنسان قد تطور من نوع آخر من الخلق ، فعلم الوراثة يرفض ذلك الاحتمال . .

ومن البديهى أن يكون خلق أجسام آدم وزوجه من مادة هذه الأرض . . وهى الماء والتراب . . وهذا الاستدلال صحيح . . ودليل صحته أنه وافق ما جاء بالقرآن والسنة من حق وصدق ويقين . . ففى سورة الفرقان ٥٤ يقول الله عز وجل :

﴿ وَهُوَ الَّذِى خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُ نَسَباً وَصِهْرًا وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا ﴾ . فالله حدد مادة الخلق وهو الماء . . وحدد المخلوق وهو آدم وذريته . . وكان ربك قديرا . . وفى سورة آل عمران ٥٩ قال الله عز وجل :

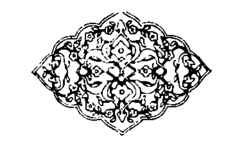
﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِندَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴾ وروى الترمذى عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :

« الناس كلهم بنو آدم ، وآدم خلق من تراب » .

الحديث الشريف من جملتين اثنتين . . كل منها مكون من ثلاث كلمات ولكنها مع قلة عدد كلماتها ، تحمل حقائق كثيرة جداً ، تكتب فى صفحات أكثر عدداً (الناس كلهم بنو آدم) إنها جملة تقرر واقعا . . وتقرر حقيقة علمية ثابتة . . وفى نفس الوقت ترفض رفضا جازما كلَّ نظريات أصل الأنواع المخطئة . والتى تزعم أن الناس كلهم ليسوا بنى آدم . . فصدرُ الحديث الشريف يرفض كل تلك النظريات الضالة ، ويقرر

أن كل إنسان إنما هو من بنى آدم . . ويرجع نسبه إلى الإنسان الأول وهو آدم . . وعقب الحديث بالقول (وآدم خلق من تراب) . . إنها حقيقة علمية لا شك فيها نلاحظ أن هذه الحقيقة ذكرت فى القرآن والحديث النبوى . . وجاء لفظ « تراب » غير معرّف بأداة التعريف فلم يقل (خلق من التراب) . ولكنه قال (خلق من تراب) فهو لم يخلق من تراب معين . . ولكنه من بعض تراب هذه الأرض . . وهذه حقيقة علمية اكتشفها العلماء فى عصور العلم الحديثة . . فلقد وجدوا أن كل مكونات جسم الإنسان موجودة فى تراب هذه الأرض . . ولايوجد عنصر فى جسم الإنسان ، إلاوهو موجود فى تراب الأرض ، فلابد إذن أن يكون خلق جسم الإنسان من تراب هذه الأرض ، كما أخبرنا الله ورسوله . . وصدق الله ورسوله .

ذكر القرآن الكريم فى سورة الفرقان أن الإنسان خلق من ماء . . وذكر فى سورة آل عمران أنه خلق من تراب . . وإذا اختلط الماء بالتراب تكون الطين . . فلابد أن يكون بدء خلق الإنسان من طين . . نجد هذه الحقيقة فى سورة الأنعام ٢ فى قول الله تعالى : ﴿ هُوَ الَّذِى خَلَقَكُم مِّن طِينٍ ثُمَّ قَضَى أَجَلًا ﴾ . وفى سورة المؤمنون ١٢ يقول الله عز وجل : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِن سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ ﴾ وفى سورة السجدة ٧ يقول الله تبارك وتعالى : ﴿ الَّذِى أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِن طِينٍ ﴾ .



نظريات النشوء والارتقاء جـ ١

فى القرنين الماضيين ظهرت كثير من النظريات والافتراضات التى حاول أصحابها أن يدللوا بها على كيفية نشأة الإنسان على هذه الأرض . . ونقول ابتداء أن أحداً من الناس لم يشهد خلق الإنسان الأول . . ولا توجد آثار أكيدة تدل على كيفية نشأة آدم . . ولقد أخبرنا الله تعالى فى سورة الكهف (٥١) فقال عز وجل :

﴿ مَا أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا ﴾ الآية الكريمة تعنى الجن . . ويتسع المعنى فيها للبشر أيضا . .

من هذا نفهم أن تلك النظريات التى تتحدث عن بدء خلق الإنسان لاتزيد على كونها افتراضات وظنون لا ترقى أبداً إلى مستوى الحقيقة العلمية . . ومن تلك الافتراضات ما يطلق عليه اسم « نظريات النشوء والارتقاء » « ونظريات التطور وأصل الأنواع » . .

إنها مجرد فروض ظنية . . ويطلق عليها اسم « نظرية علمية » تجاوزا . . ومعلوم أن أى نظرية علمية مهما كانت قوتها . . تصيب حينا وتخطىء أحياناً . . وما كان يغنينا أن نناقش مثل هذه النظريات ـ التى أثبت العلم الحديث خطأها ـ إلا لأنها تتعرض لنشأة خلق الإنسان على هذه الأرض . . ولأنها تنطلق أساسا من فكر إلحادى . . ولأن بعض الناس ـ حتى فى عصرنا هذا الذى ثبت فيه خطأ تلك النظريات ـ لا زالوا يتحدثون عنها بل ويتحمسون لها . . وما يفعل ذلك إلا الذين يحاربون الدين . . فإذا أراد بعض الناس أن يحاربوا الدين . . وينكروا وجود الله تعالى . . اتخذوا من تلكم الأفكار الضالة والظنون المخطئة ، ذريعة لما يهدفون إليه . وما دليلنا نحن على ضلال فكرهم وخطأ ظنونهم ؟ دليلنا على ذلك أنهم

يناقشون موضوع خلق الإنسان بدون منهج علمى صحيح ، وإنما راحوا يتخبطون فى فكر خاطىء . . فالمنهج العلمى الصحيح فى أى مناقشة علمية صحيحة ، هو وضع جميع الاحتمالات المتعلقة بموضوع البحث تحت الدراسة . . ووضع الآراء المتفقة والمعارضة لموضوع البحث على سواء ، فى محاولة التوصل إلى الصحيح منها بدون تحيز لرأى من الآراء ، وبدون تعصب لنظرية من النظريات . . وهذا المنهج العلمى الصحيح فى البحث العلمى يسمى : (الاستقراء التام) . . وهو المنهج العلمى الصحيح الذى استقر عليه العلماء فى عصور العلم . . والذى جاء به القرآن العظيم وعلمنا أياه من قديم وذلك فى سورة آل عمران ٦٤ فى قول الله عز وجل :

﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً ﴾ . . فالمنهج العلمى الصحيح فى البحث العلمى ، يضع الرأيين المختلفين على سواء على بساط البحث والدراسة . . أما أصحاب نظريات النشوء والارتقاء والتطور وأصل الأنواع ، فإنهم تجاهلوا الاحتمالات الموضوعية التى لا رغبة لهم فيها . . وأبعدوها تماما عن بساط البحث . . وتجاهلوا مناقشتها ودراستها . . فحقيقة نشأة الإنسان فى هذه الأرض كإنسان تام الخلقة فى خلق آدم . . بغير أب ولا أم . . وبغير إنسان سابق عليه . . هذه الحقيقة التى ذكرها القرآن الكريم مراراً لم يناقشوها . . ولم يضعوها حتى كفرض علمى فى البحث ولا حتى كاحتمال من الاحتمالات التى اختاروها للبحث والدراسة . . وهذا ما يسميه العلماء « الاستقراء الناقص » . . وهو منهج غير صحيح فى البحث العلمى . . من هذا نفهم أن أساس فكر أصحاب نظريات النشوء والارتقاء ونظريات التطور وأصل الأنواع وأساس نظرياتهم عن بدء خلق الإنسان ، أساس علمى مخطىء . . ولايقوم رأى صحيح على أساس مخطىء . .

وهناك أمر آخر أنه لا يثبت رأى علمى إلا بدليل علمى أكيد وبرهان صحيح . . وبذلك يصير الفرض العلمى أو النظرية العلمية حقيقة علمية . . وأى رأى يخضع

للعلم التجريبى ولا يستند إلى برهان علمى أكيد ، لا يرتقى أبداً إلى مستوى الحقيقة العلمية . . وهذا من أهم مبادىء البحث العلمى الصحيح الذى توصل إليه علماء البحث العلمى فى القرن الثامن عشر . . ولكننا نجده فى القرآن الكريم مبينا ومذكورا فى سورة الأنبياء ٢٤ فى قول الله عز وجل : ﴿ أَمِ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ هَذَا ذِكْرُ مَن مَّعِيَ وَذِكْرُ مَن قَبْلِي بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ فَهُم مُّعْرِضُونَ ﴾ وعن نفس المنهج الصحيح فى الفكر الإنسانى نقرأ فى سورة النمل ٦٤ قول الله تعالى :

﴿ أَمَّن يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ .

من هنا نفهم أن الشروط اللازمة للمناقشة العلمية الصحيحة والبحث العلمى الصحيح ، لم تتوفر لدى أصحاب تلك النظريات . . وأنهم كانوا يحاولون نشر أفكارهم وظنونهم بغير أساس علمى سليم . . وبدون دليل وبرهان واضح . . من كل ذلك نفهم أنها نظريات أسست لمحاربة الدين . . وإنكار وجود الله تعالى . . وأصحاب تلك النظريات والافتراءات كثيرون . . وما أكثر أعداء الدين عدداً . .

ولما طالبهم الناس بالدليل على صدق نظرياتهم أنشأوا نظريات أخرى وظنونا جديدة ، ومن تلك الظنون التى حاولوا بها تفسير بدء الخلق ، ما تسمى نظرية النشوء الذاتى التلقائى Spontaneous generation . . افترضوا أن جو الأرض البدائى كان مكونا من غازات الأمونيا والنيتروجين والميثين وبخار الماء . . وافترضوا أن من هذه الغازات تكونت الأحماض الأمينية . . والتى منها تكونت المواد البروتوبلازمية والتى منها نشأت الكائنات الحية وحيدة الخلية ، ثم عديدة الخلايا بعد ذلك . . وقاموا بتجربة فى المعمل . . قام بها ستانلى ميللر ، فجمع تلك الغازات فى قارورة مع الماء ، ثم مرّر عليها شحنة كهربائية مستمرة لمدة أسبوع . . وبعد أسبوع وجد ميللر فى ماء القارورة بعض الأحماض الأمينية التى تكونت نتيجة التفاعل الكيميائى . . واعتبروا أن فى ذلك الدليل على أن بدء الخلق نشأ تلقائيا على هذه الأرض وذلك

بوجود تلك الغازات فى جو الأرض البدائى ، ووجود شرارات البرق والصواعق الكثيرة ، التى كانت موجودة فى الأرض وغلافها الجوى البدائى . .

وهناك ثلاثة اعتراضات على تلك النظريات :

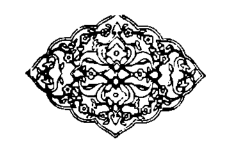
أولاً : لماذا لم يسألوا أنفسهم من خلق تلك الغازات وبخار الماء . . والشرارات الكهربائية . . أخلقت نفسها هى الأخرى تلقائيا وبدون خالق ؟ . . لم يناقشوا هذا الموضوع الهام . . ولم يبحثوه . .

ثانيا : اكتشف علماء الفضاء فى عصرنا هذا وجود غازات الميثين والنشادر والنيتروجين فى جو كوكب المشترى والزهرة وغيرهما من الكواكب . . وقد خلقت تلك الكواكب مع خلق الأرض . . فلماذا لم تتكون فيها الحياة . . ولماذا لم تنشأ فيها الكائنات الحية كما نشأت على الأرض ؟

إنهم لم يناقشوا ذلك . . ولم يبحثوه . .

ثالثا : الأحماض الأمينية التى تكونت فى تجربة ستانلى ميللر ، تدل على تفاعل كيميائى بين تلك الغازات بوجود الطاقة الكهربائية . . فالأحماض الأمينية لم تخلق من عدم . . فضلا عن أن تلك الأحماض الأمينية التى نتجت عن تلك التجربة كانت أحماضا ميتة لاحياة فيها . . ولايمكن أن تنشأ مخلوقات حية تلقائيا من مواد ميتة . . فالحياة لابد أن تنشأ من حياة . . فمن بث الحياة فى الكائنات الحية على الأرض ؟

إنها ثلاثة أسئلة لم يستطع أصحاب تلك النظرية أن يجيبوا عليها . وأى نظرية تفشل فى الإجابة على أسئلة تتعلق بموضوع البحث ، لا يمكن أن تكون صحيحة أبداً .





نظريات النشوء والارتقاء حـ ٢

اعتقد بعض الفلاسفة منذ عصر الإغريق أن الحياة نشأت فى الأرض تلقائياً .. وبرهنوا على زعمهم هذا باعتقاد علمى مخطىء .. وهو نشأة الذباب من المواد المتحللة تلقائيا .. وقالوا إن ما حدث لنشأة الذباب حدث لنشأة كل الأحياء على الأرض .

وظل هذا الاعتقاد المخطىء فى نظر المفكرين والعلماء صحيحاً عشرين قرنا من الزمان ، من القرن الثالث ق . م إلى القرن السابع عشر الميلادى ، حتى توصل العالم الإيطالى ردى Redi فى القرن السابع عشر ، إلى اكتشاف دورة حياة الذباب .. وأن الذباب لا ينشأ تلقائيا من المواد المتحللة .. ولكن الذباب يضع بيضه بين المواد المتحللة فيفقس البيض وتخرج منه اليرقات .. ومن اليرقات تخرج الحشرات ، التى تتزاوج وتضع الإناث بيضها بين المواد المتحللة ، وهكذا تستمر دورة حياة الذباب .. وثبت للعلماء بعد القرن السابع عشر أن الحياة لابد أن تنشأ من حياة ..

لذلك فكر العلماء فى نظرية جديدة تكشف سر نشأة الكائنات الحية البدائية . فخرجوا بما سموه « النظرية الكونية » Cosmic theory وهى نظرية تزعم أن الحياة نشأت على الأرض ، من جراثيم حية وصلت إلى الأرض من كواكب أخرى ، بثت الروح فى المواد العضوية فى البحار البدائية .. ومن ذلك نشأت أنواع الخلائق الأخرى .. وواضح لكل ذى عقل سليم أن هذه النظرية ضرب من الخيال .. فالجراثيم الحية لا تبث الروح فى الأجسام الميتة فتحييها .. ولا يعقل ذلك الوهم مطلقا ، وإنما تحدث الجراثيم عمليات التعفن والتحلل فى الأجسام الميتة ..

وفضلا عن كل ذلك ، فالإشعاعات الكونية والاختلافات الهائلة فى الضغط

والحرارة فى الفضاء الكونى ، لا تسمح أبدا لأى جراثيم حية بالمرور من كوكب إلى كوكب آخر . . ولم يفسروا لنا أيضاً نشأة تلك الجراثيم الحية المزعومة ، الآتية من تلك الكواكب المجهولة . .

ولما ثبت فشل تلك النظريات عن بدء الخلق ، فكروا فى ظنون أخرى بهدف إثبات نشأة الخلق بدون خالق . . فافترضوا أن الحياة نشأت فى البحار البدائية ، من مركبات عضوية نشأت هى الأخرى تلقائيا وعشوائيا . . ثم ما لبثت أن تحولت إلى مواد بروتوبلازمية . . ثم دبت فيها الحياة تلقائيا أيضاً . . ثم تتالت صور الحياة على الأرض بعد ذلك . .

ومن الواضح أن كل تلك الظنون لا أساس لها من الصحة . . ولا يفكر فيها ويحاول عبثا إثبات صحتها إلا أعداء الدين . . تدفعهم عقدة نفسية مرضية ، هى عقدة الهروب من الله . . ويخبرنا الله تعالى عنهم فى سورة الجن ١٢ عن لسان الجن أنفسهم يقول الله عز وجل ﴿ **وَأَنَّا ظَنَنَّا أَن لَّن نُّعْجِزَ اللَّهَ فِي الْأَرْضِ وَلَن نُّعْجِزَهُ هَرَبًا** ﴾ ولقد أخبرنا الله تعالى ، عن أولئك الضالين المضلين الذين ينكرون نشأة الخلق بأمر الله تعالى ويتحدثون عن نشأة الخلق بغير علم وفهم . . وبغير هدى ومشاهدة . .

نقرأ عن ذلك [سورة الكهف ـ ٥١] قول الله عز وجل :

﴿ **مَا أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُداً** ﴾ ما أشهدتهم : الضمير يعود على إبليس وذريته . . وقيل الكناية فى القول ، ترجع إلى منكرى البعث ومنكرى وجود الله تعالى . . وكلا الرأيين صحيح . . فذرية إبليس من شياطين الجن . . ومنكروا البعث بعد الموت من شياطين الإنس . . ووصفتهم الآية بالمضلين .

وفى القرنين الماضيين ، ظهر العديد من المفكرين أعداء الدين ، ممن حاولوا إثبات نشأة الخلق على أساس الصدفة والعشوائية بدون خالق . . ومن هؤلاء تشارلز

داروين . . ولم يكن ذلك الرجل أول من فكر فى تلك النظريات الإلحادية . . فقد سبقه الكثيرون . . كان منهم كانت Kant الألمانى سنة ١٧٨٦ م الذى ألف كتابا عنوانه « الأسس الميتافيزيقية للعلم الطبيعى » . . واستعرض فى كتابه تلك الظنون والافتراضات . . بدون دليل علمى أكيد . .

وفى سنة ١٧٩٦ م ناقش المفكر « لابلاس » نشأة الخلق من السديم الكونى ، وفى سنة ١٨٣٠ م نشر أرازموس داروين وهو جد تشارلز داروين كتابا عنوانه « معبد الطبيعة » تحدث فيه عن الافتراضات العلمية عن نشأة الحياة ذاتيا بدون خالق . .

وفى أوائل القرن الماضى ظهر بيفون Buffon ولامارك Lamark وغيرهما . . وتحدثوا عن النظريات الضالة المخطئة . . وكأنها حقائق علمية . . وهم فى ذلك مخطئون . . فلا تكون الحقائق العلمية الثابتة بدون دليل علمى وبرهان صحيح . . وفى النصف الثانى من القرن الماضى ظهر تشارلز داروين ، فى جو مشحون بكل تلك النظريات الإلحادية ، التى تحارب الدين ورجال الكهنوت فى أوروبا فى تلك العصور . . ولعل ذلك كان ردًّ فعلٍ طبيعى لاضطهاد رجال الكهنوت للعلم والعلماء فى أوروبا فى العصور الوسطى . .

ولقد ألف هاركورت بريس Harcourt Brace كتابه عن تشارلز داروين كان عنوانه (سيرة حياة داروين) نسب فيه إلى داروين قوله : (إن العهد القديم عرض تاريخى زائف للعلم وأحداثه) . . وفى ذلك الدليل على أن داروين كان ملحداً . . ودليل ذلك أيضا أنه درس اللاهوت فى جامعة كامبردج ليصير قسيسا ، ولكنه ترك الجامعة بعد قضاء ثلاثة أعوام ونسب إليه قوله (إنها ثلاثة أعوام ضاعت من عمرى فى دراسة أمور مخطئة من نسج الخيال) .

وفى مؤتمر عقد فى أوروبا سنة ١٨٧٩ م تحدث هكسلى ، وكان من أكبر دعاة نظريات نشأة الخلق تلقائياً . . وواجهه بعض الحاضرين بأسئلة لم يستطع أن يرد عليها فقيل له : أنت تقول إن الغازات والعناصر التى تجمعت تلقائيا نشأت منها

الكائنات الأولية . . فمن بعث فيها الحياة ؟ . . ومن أوجد الطاقة ؟ ومن خلق تلك العناصر ؟

فبهت هكسلى وأعلن أنه لا يستطيع الإجابة عن هذه الأسئلة ، ولكنه يعتقد أن كل أنواع الخلق نشأت فى البحار البدائية نوعاً واحداً من الكائنات البدائية ثم تطورت بعد ذلك إلى أنواع أخرى . .

وما قيمة اعتقاده هذا ، إن لم يكن مستنداً إلى دليل علمى ثابت ، وبرهان علمى صحيح .



نظرية الصراع من أجل البقاء للأقوى

معظم النظريات القديمة عن بدء الخلق ، تؤكد أن الحياة ابتدأت فى البحار البدائية من مواد بروتوبلازمية . . ولا ندرى على أى دليل بنوا هذا التأكيد ، وفى رأينا أن تلك النظريات عن نشأة الحياة فى الماء مجرد ظن لا يرتقى حتى إلى مستوى النظرية العلمية . . والصحيح أن الحياة لم تخلق فى الماء . . وإنما خلقت من ماء . . وحدثت كل العمليات الحيوية من ماء . . فالخلق من ماء وليس فى الماء .

نقرأ عن هذه الحقيقة [سورة النور] فى قول الله عز وجل :

﴿ وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِّن مَّاءٍ فَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَى بَطْنِهِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَى رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَى أَرْبَعٍ يَخْلُقُ اللهُ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ .

وفى سورة الفرقان ٥٤ يقول الله تعالى :

﴿ وَهُوَ الَّذِى خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُ نَسَبًا وَصِهْرًا وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا ﴾ فالخلق كان من الماء وليس فى الماء كما كان الفلاسفة فى العصور الماضية يعتقدون ، وكما يعتقد من ينقل عنهم فى زمننا هذا أيضاً . . لقد ذكر القرآن الكريم أن خلق الدواب وخلق الإنسان من الماء ، ولم يبدأ الخلق فى الماء . . وورد ذلك فى الحديث النبوى أيضا ، فقد روى الإمام أحمد عن قتادة عن أبى ميمونة أن أبا هريرة ـ رضى الله عنه قال : يارسول الله أنبئنى عن كل شىء فقال رسول الله ﷺ : (كل شىء خلقه الله عز وجل من ماء) .

وفى سنة ١٨٥٩ م نشر داروين كتابه عن أصل الأنواع ، وجعل أساس نظريته فكرة الصراع من أجل البقاء للأقوى . . وزعم أن ظروف البيئة القاسية تقضى على الأجناس الضعيفة . . ويظل الجنس الأقوى . . واتخذ من تجارب الانتخاب

الاصطناعى على الحيوانات والنباتات دليلا على صحة نظريته . . ومادامت أجناس حيوانية ، قد نشأت من تجارب الانتخاب الاصطناعى فقد استنتج أن نفس الشىء يحدث فى الأحياء الأخرى بالانتخاب الطبيعى أيضاً . . ومن قبل كان المفكر الفرنسى جان لامارك الذى نشر سنة ١٨٠٩ م كتابه (فلسفة علم الحيوان) وذكر فيه أن الإنسان لم يكن إنسانا فى بدء الخلق . . وإنما كان نوعاً آخر أحط منه فى عالم الحيوان . . ثم تطور خلقه بعد ذلك فصار إنسانا . . وفى نفس هذه الأفكار كتب هربرت سبنسر سنة ١٨٥٢ . . واقتنع أولئك الناس بصحة فكرة الصراع من أجل البقاء للأقوى . . وساقوها دليلا على صحة نظريات النشوء والارتقاء والتطور وأصل الأنواع . .

وعندما تقدم العلم بعد ذلك ، توصل العلماء إلى أنه لا يوجد صراع من أجل البقاء للأقوى ، ولكنه توازن حيوى فى البيئات الحيوية . . ونضرب لهذا مثلا بالبكتريا . . إنها تتكاثر بمعدل سريع جداً . . ولو أنها تركت تتكاثر دون أن تموت شهراً واحداً ، لغطت سطح الكرة الأرضية كلها بعمق عشرات الأمتار . . وبالتالى ما بقى لأى كائن حى غيرها أى فرصة للحياة على هذه الأرض . . ولكن الله تعالى قيض للبكتريا مخلوقا آخر يقتلها هو فيروس صغير جداً يسمى البكتريوفاج . . يخترق البكتريا ويتكاثر داخلها بالمئات فتموت البكتريا وتنفجر . . وتنطلق منها مئات الفيروسات ، التى تهاجم البكتريا الأخرى وتهلكها بسرعة تتناسب مع سرعة تكاثرها . . وبذلك يظل التوازن الحيوى قائماً فى عالم البكتريا وعالم الفيروسات وعالم الكائنات الحية الأخرى . .

ومثال آخر حيوان وحيد الخلية فى البحار هو البارميسيوم ، يعيش على افتراس براغيث البحر . . فإذا زاد عدد البراميسيوم ، افترست براغيث البحر فيقل عددها ، حينئذ لا تجد البراميسيوم غذاء لها فيموت معظمها . . وهذا يعطى الفرصة لبراغيث البحر للتكاثر مرة أخرى فتزداد عدداً . . فتجد البراميسيوم غذاءً وفيراً فتتكاثر ويزداد عددها . . وهكذا يحدث توازن حيوى بين براغيث البحر والبارميسيوم . . إذا زاد

عدد هذا قل عدد ذاك . . وإذا زاد عدد ذاك قل عدد هذا . . ونفس الشىء نجده بين الثعالب والأرانب فى المراعى البرية . . إذا زاد عدد الثعالب ، افترست الأرانب ، فيقل عددها ، حينئذ لا تجد الثعالب غذاء كافيا فيموت معظمها . . فتأتى الفرصة للأرانب للتكاثر مرة أخرى . . فتجد الثعالب الغذاء وفيراً وتتكاثر عدداً ، وتفترس الأرانب فيقل عددها . . وهكذا . . إنه توازن حيوى بين أنواع الحيوان جميعاً ، بحيث لا يزيد نوع منها على حساب نوع آخر . . ولا يطغى نوع منها على نوع . .

والحيوانات وحيدة الخلية أو عديدة الخلايا . . أو الأرانب والثعالب ، أو غيرها من سائر الحيوان ، لا تعى ولا تفكر . . ولا ترى فى فريستها إلا طعاما لها . . فالافتراس لديها فطرة وغريزة لتناول الطعام . . تماما كما نرى نحن فى لحم الدجاج طعاما لنا ، وليس معنى ذلك أننا دخلنا مع الدجاج فى صراع من أجل البقاء للأقوى . .

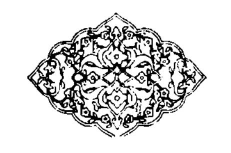
إن فكرة الصراع من أجل البقاء للأقوى ، فكرة لا وجود لها فى عالم الخلائق جميعاً . . ولا توجد هذه الفكرة ، إلا فى ذهن مخلوق واحد فقط ، مُنح العقل والاختيار من دون الخلائق جميعاً ، وهو الإنسان . . وقد يمارس الإنسان الصراع من أجل البقاء ليس فى افتراس الدجاج والخراف طعاما له . . ولكن فى دخول الحروب ضد الغير ، وسلب حقوق الغير ، والاستئثار بها . . أما ما عدا الإنسان من خلائق ، فهى لا تفكر ولا تعقل . . وإنما تقودها الغريزة وتوجهها الفطرة . . وفطرة الخلق لم تؤسس على الصراع من أجل البقاء بين الخلائق . . وانما هو توازن حيوى فى فطرة الخلق لا تستقيم الحياة إلا به . . ولا تستمر بدونه . . ومن غير المعقول أن يكون الصراع من أجل البقاء للأقوى ، هو الحافز للجراثيم مع غيرها من الكائنات ولا للحشرات مع غيرها من الخلائق . . فهى لا تعقل شيئا . . وليس لديها طاقة اختيار ، إنما هو توازن حيوى ، قدره الله تعالى لتستمر فرص الحياة ، لجميع الخلائق ، وتستمر الأنواع . . ولا تنقرض وتنتهى . .

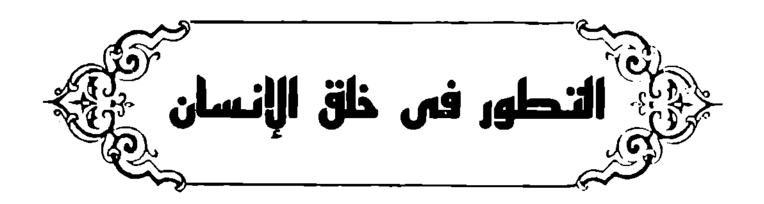
ولقد تأثر معظم المفكرين فى القرن الماضى بفكرة الصراع من أجل البقاء

للأقوى . . حتى أنها أثرت على العلوم الأخرى ، فنجد سيجموند فرويد مثلا قد أسس فكرة العلاج بالتحليل النفسى على اعتقاده أن الأمراض النفسية إنما تنشأ من الصراع بين الشعور واللاشعور . . وظهرت ايديولوجيات سياسية واقتصادية مثل النظريات المادية الجدلية ، وقد أسست على فكرة الصراع بين الطبقات فى المجتمع . . واعتقد الناس أن الوجود كله إنما بنى على الصراع من أجل البقاء . . وهذا ظن مخطىء . . فالوجود ليس قائما على الصراع . . ولكن على توازن دقيق بين الخلائق وبيئاتها جميعاً . .

ولم تأت كلمة « صراع » فى القرآن ، ولا فى الحديث النبوى ، فى سياق الحديث عن حقائق الخلق . . وإنما جاءت كلمة « الوزن » ، « الميزان » ، « الموزون » . . فالخلق كله ، وفطرة الخلق جميعها ، ليست قائمة على الصراع ، ولكن على التعادل والتوازن ، كما أخبرنا الله تعالى فى سورة الحجر ١٩ فى قوله تعالى ﴿ وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهاَ رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهاَ مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ ﴾ . .

إن أى نوع من الخلق ، إنما هو من توازن محكم . . ومن هنا كان خطأ المفكرين فى هذا الموضوع ، وخطأ أصحاب نظريات النشوء والارتقاء والتطور وأصل الأنواع . . ومن هذا الخطأ فى الفكر ، دخلوا فى متاهات أخرى من الأخطاء . . وخرجوا بأفكار ليس لها من الصحة أى نصيب .





التطور فى خلق الإنسان

اعتقد علماء التطور .. بناء على احتمالات وافتراضات بدون دليل علمى ثابت وأكيد .. اعتقدوا أن التطور الذى حدث فى خلق الإنسان استغرق ستة عشر مليونا من السنين ..

وزعموا أن الإنسان الحالى ، انحدر من نوع من القرود أقل منه تطوراً فى الماضى البعيد ، وقال عالم هولندى يدعى ديبوا أن الإنسان القرد عاش فى جاوة ، وأنه اكتشف أحفورة له هناك سنة ١٨٩١ .. واكتشف كنجز ڤالد Koenigs wald أحافير أخرى للإنسان القرد فى جاوة أيضاً .. وأطلق عليه اسم « الرجل القرد الثانى » وافترض أنه الحلقة المفقودة بين الإنسان الحديث ، والنسانيس الموجودة الآن .. ولاحظ العلماء فى الأحافير فى صخور الأرض تطوراً فى صورة الأجسام .. فظنوا أن الخلائق جميعاً نشأت من نوع واحد ، ثم مالبثت أن تطورت أنواعاً مختلفة ، وسلالات شتى .. وإننا لانتفق مع أولئك الناس .. فلا تُبنى حقائق العلم إلا على أدلة ثابتة ، ولا تبنى على افتراض .. ولا تؤسس على ظن .. والذى يتحدث عن التطور فى الخلق ، ينبغى عليه أن يضع حقائق علم الوراثة حكما وفيصلا ..

ولم يكتشف العلماء حقائق علم الوراثة على الحيوان إلا فى أوائل هذا القرن .. ولم تكتشف تلك الحقائق فى خلايا الإنسان ، إلا فى مطلع النصف الثانى من هذا القرن .. منذ نحو أربعين سنة فقط .. فأى حديث عن التطور الذى لحق بالإنسان قبل ذلك التاريخ إنما هو حديث ظنى .. غير مبنى على أى حقيقة علمية .. وإنما على افتراضات أو مشاهدات لا ترتقى إلى درجة الدليل العلمى الأكيد ..

ولقد اعتمد علماء التطور فى نظرياتهم على الأحافير .. والأحافير هى تحول المواد العضوية فى الأجسام الميتة المطمورة تحت التربة ، إلى مواد صخرية أو

معدنية . . وقد تظهر عدة أحافير تختلف حجما وشكلا لنوع واحد من المخلوقات ماتت جميعاً فى زمن واحد . . وإنما يرجع الاختلاف فى أحجامها وأشكالها إلى الاختلاف فى أعمارها عند موتها . . فقد نشاهد أحفورتين كانتا لرجل وابنه . . فهما تختلفان حجما وشكلا . . ونخطىء إذا قلنا أن فى هاتين الأحفورتين الدليل على التطور الذى حدث للإنسان . . صحيح أن العلماء فى استطاعتهم تحديد عمر الأحفورة ، ولكن لا يمكن الاعتماد على مشاهدة الأحافير فى إقامة حقائق علمية فى مجال التطور وأصل الأنواع . . إذن فنظريات أصل الأنواع لا ترتقى إلى درجة الحقيقة العلمية . .

ولقد تحدث كثير من المفكرين فى موضوع التطور فى الخلق . . وخاصة تطور خلق الإنسان ، ولقد عارضه البعض وتحمَّس له البعض الآخر . . وقال المعارضون إن التطور فى الخلق ليس حقيقة علمية . . ومازال الحديث فيها فى طور النظريات التى تحتمل الخطأ والصواب . . ولسوف يثبت العلم مستقبلا إنها كانت على خطأ . . وقال آخرون أن نظريات التطور تتعارض مع الدين . . وأن القرآن يرفضها جملة وتفصيلا . . أما المتحمسون لهذه النظريات فيقولون إنه من الخطأ أن ننكر التطور فى الخلق . . فقد أثبتته الأحافير وعلم طبقات الأرض ، وعلم الإنسان ، وعلم الأحياء . . ولا يخلو كتاب علمى فى الأحياء من الإشارة إلى التطور فى الخلق . . ويقولون إن الذين يقحمون الدين وينسبون إليه معارضته للتطور فى الخلق . . إنما يضعون الدين فى حرج ، ويضعون القرآن الكريم فى حرج أيضاً . . فمن المحتمل جداً أن تكتشف فى المستقبل أدلة قاطعة ، وبراهين أكيدة ، تثبت حقيقة التطور . . فيكونون بذلك قد نسبوا إلى الدين وإلى القرآن العظيم ، ما هو برىء منه . .

واختلط الأمر على بعض المفكرين . . فظنوا أن الفكر الوجودى لنشأة الخلق نظرية واحدة . . والواقع أنها نظريات مختلفة . . منها نظرية نشأة الخلق بطريق الصدفة فى البحار البدائية . . ومنها نظرية أصل الأنواع التى تزعم أن المخلوقات

الحية جميعاً نشأت من الكائنات الحية البدائية فى البحار الأولى . . ومنها نظريات التطور المبنية على المشاهدات والاستنتاجات . . ويقول علماء التطور إن الإنسان ابتدأ فى التطور منذ أكثر من ستة عشر مليونا من السنين ، ابتداءً من الإنسان القرد . . وأن الإنسان الحالى ليس هو الصورة النهائية للإنسان ، فسوف تستمر عمليات التطور فيه . . وأنه بمرور ملايين السنين قد يصير خلقا آخر ، يختلف كثيرا عما هو عليه الآن . .

وفى رأينا بناءً على دراسة الحقائق العلمية فى مختلف فروع العلم ، وبناء على ما استجد من حقائق علم الوراثة فى عصرنا هذا مما لم يكن معروفاً من قبل ، وبناءً على فهمنا لبعض ما فى الآيات القرآنية والأحاديث النبوية من علم ، نقول إنه بناءً على كل ذلك ، لا نعترض على قضية التطور فى الخلق . . ونقول إن التطور فى خلق الإنسان حقيقة ثابتة لا شك فيها . . إلا أننا لا نوافق أصحاب تلك النظريات على تفسيرهم المخطىء لها . . وفهمهم للتطور على أساس نظرية أصل الأنواع . .

إن التطور تحكمه قوانين ثابتة فى علم الوراثة ، لم تكتشف إلا فى النصف الثانى من هذا القرن . . ولا يمكن أن تكون الحيوانات جميعاً قد نشأت فى بدء الخلق ، من حيوان وحيد الخلية ، فى البحار البدائية كالأميبا والبارميسيوم واليوجلينا . . ولو كان هذا صحيحاً ، فما بال الأميبا والبارميسيوم واليوجلينا مازالت فى البحار والأنهار حتى يومنا هذا ، لم تتغير ولم تتطور إلى نوع آخر من الخلق ؟ . . ولقد افترضوا افتراضات تفسر هذا على أساس الطفرات الوراثية . . إلا أنها افتراضات لا تقنع عالماً . . لأنها لا تزيد على كونها ظنا . . وقالوا إن الإنسان كان من قبل قرداً منذ ملايين السنين . . وإذا كان هذا صحيحاً ، فما بال القرود مازالت قروداً حتى يومنا هذا ولم تتحول إلى إناسي ؟

لابد أن للأمر وجها آخر ، لم يفطن إليه علماء النشوء والارتقاء . .

إن التطور فى الخلق لا ينكره إنسان عالم ، فهو حقيقة فى خلق الكائنات الحية جميعاً ، وهو حقيقة فى خلق الإنسان نفسه . . ومما لا شك فيه أن الإنسان بدأ خلقه

إنساناً عملاقا كما بينت أحافير جاوة التى اكتشفها ديبوا Debois سنة ١٨٩١ . . ثم تطور شكله الخارجى وتطورت ملامحه . . وتطور من الطول إلى القصر ، حتى صار إلى ما هو عليه الآن . .

إن التطور فى خلق الإنسان ـ كما حدث فى خلق أى كائن حى آخر ـ هو تطور فى الشكل الخارجى ، وفى اللون ، أو الملامح ، أو الطول ، أو القصر . . فالإنسان قد تطور شكله عبر مئات الألوف من السنين ، وذلك بسبب طفرات فى العوامل الوراثية ، كانت هى المسئولة على التغير الذى حدث فى بعض الصفات الخلقية فى الجسم . . ولكنها لم تغير نوع الخلق قط . . ودليل صحة اعتقادنا هذا ما اكتشفه علم الوراثة فى عصرنا هذا ، وما جاء فى الحديث النبوى ، الذى رواه البخارى ومسلم عن أبى هريرة ـ رضى الله عنه ـ أن رسول الله ﷺ قال :

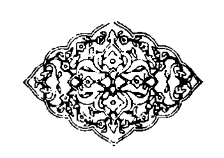
[خلق الله عز وجل آدم عليه السلام على صورته طوله ستون ذراعاً] إلى قوله (ﷺ) [فكل من يدخل الجنة على صورة آدم وطوله ستون ذراعاً فلم يزل الخلق ينقص بعده حتى الآن] **على صورته** : الضمير عائد إلى آدم ، وجاء فى التفسير أن المراد أن الله خلق آدم على الصورة التى كان عليها فى الأرض وكان طوله ستين ذراعاً . . وكانت صورته فى الجنة هى صورته على الأرض لم تتغير .

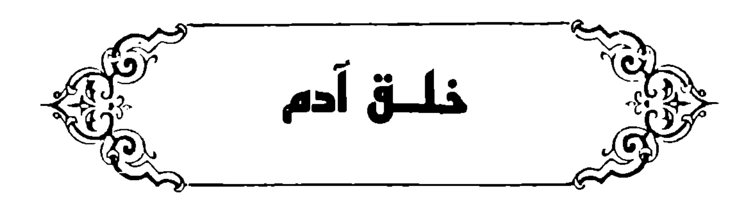
ونفهم من الحديث النبوى إن الإنسان خلق إنساناً من غير مثال سابق . . وإنه كان ستين ذراعا فى الطول ومازال ينقص فى الطول حتى صار الآن ذراعين تقريباً . . وربما كانت أحافير جاوة العملاقة التى اكتشفها ديبوا سنة ١٨٩١ لإنسان بدائى ولم تكن للإنسان القرد كما ظن . . ولايمكن أن نقطع بنوع المخلوق إلا بعد دراسة خلاياه من الناحية الوراثية . . وهذا لا يتأتى أبداً فى دراسة الأحافير الصخرية . . إن التطور فى الشكل الخارجى ، وفى الصفات الخلقية حقيقة لا شك فيها ، فالإنسان فى وسط أفريقيا ، يختلف شكلا وطولا ولونا عن إنسان أوروبا . . وهذان يختلفان كثيراً عن إنسان شرق آسيا ، أو إنسان من الأسكيمو ، إذن فهناك ثبات فى خصائص الخلق مع تطور فى الصفات الخارجية ، وبعض الصفات الخلقية الأخرى . . وكان

ذلك الاختلاف فى الصفات بسبب الطفرات الوراثية التى تسبب التغير فى الصفات الخلقية . . ولكنها لا تسبب أبداً التغير فى نوع المخلوق مهما طال الزمن ، ومهما مرت السنوات . .

ومن هنا نشأت السلالات الخمس الكبرى للجنس البشرى ، وهى السلالات القوقازية والزنجية والمغولية والهندية الأمريكية والاسترالية .·. وإننا إذا نظرنا إلى أى إنسان من أى سلالة من هذه السلالات البشرية ، لوجدناه مختلفاً كثيراً عن أى إنسان من أى سلالة أخرى . . وكأنهما نوعان مختلفان من المخلوقات لا يمتان بصلة إلى نوع واحد . . إلا أن الاختلاف ظاهرى . . فهم جميعاً من نوع واحد من الخلق هو نوع الإنسان . . وإذا أخذنا خلية من إنسان فى كل سلالة من السلالات الخمس وفحصناها وراثيا . . لوجدنا أن النظام الوراثى والشفرة الوراثية متطابقة فى الجميع ، لاتفاوت بينها ولا اختلاف . . اللهم إلا فى بعض الصفات الوراثية ، الموجودة على الشفرة الوراثية . . فلم يحدث أى تطور فى النظام الوراثى فى خلق الإنسان كنوع من الأنواع . . وإنما الذى حدث هو تغيرات فى بعض العوامل الوراثية أو الجينات ، وذلك بسبب ظروف بيئية أو طبيعية أو جغرافية ، وبذلك يتوافق الإنسان مع بيئته التى يعيش فيها . . ويتفق معها . .

البشر جميعاً من نوع واحد فى الخلق . . منذ آدم إلى اليوم . . ولم يخلق الله تعالى آدم على مثال سابق ، أو من نوع آخر من الخلق ، كما زعم أصحاب نظريات أصل الأنواع والنشوء والارتقاء . . ولو اطلعوا على حقائق الوراثة كما نعرفها نحن اليوم ، لغيروا آراءهم تماما . . ولرجعوا عما كانوا يعتقدون . .





خلـق آدم

في تاريخ كل إنسان،أب وأم . .ماعدا ثلاثة من البشر آدم ، وزوجه ، والمسيح عيسى بن مريم . . لم يكن للمسيح أب . . ولم يكن لزوج آدم أم . . ولم يكن لآدم أم ولا أب . . ماعدا هؤلاء الثلاثة من البشر ، فإن لكل إنسان أب وأم . . ويبتدىء خلق الإنسان فى الدنيا نطفة فى رحم أمه . . وتحمل خلايا هذه النطفة عوامل الوراثة من كل من الأب والأم ، ففى كل البويضة من الأم . . والحيوان المنوى من الأب . . ثلاثة وعشرون كروموسوما تحمل عوامل الوراثة ويتحدان معاً ، ويكونان النطفة التى تحمل ستة وأربعين كروموسوما يحمل عوامل الوراثة من كل من الأب والأم . . .

وتظل العوامل الوراثية ـ التى تتحكم فى الصفات الوراثية الخلقية فى الجسم ـ تنتقل من جيل إلى جيل . . وقد تحدث طفرات وراثية ـ أى تغيرات فى عوامل الوراثة ـ فى أحد الناس ـ لسبب أو لآخر ـ فتظهر صفة خلقية جديدة لم تكن موجودة فى الجيل السابق . . ولكنها تورث للجيل اللاحق . . ومهما ظهرت من طفرات وراثية فإن النظام الوراثى والشفرة الوراثية فى نواة كل خلية بالجسم ، تظل ثابتةً ومميزةً للنوع . . ولا تكون فى نوع آخر من المخلوقات . . ولا تتطور إلى سواه . .

نأخذ مثلاً صفة لون الجلد ، أو لون الشعر ، أو لون قزحية العين ، أو طول الجسم أو قصره أو شكل الأنف أو الشفتين . . إنها جميعاً صفات وراثية . . تختلف من جنس من البشر إلى جنس آخر . . أو أنها تختلف حتى بين الأفراد فى الجنس الواحد . . وذلك بسبب حدوث طفرات وراثية . . حدثت فى جيل من الأجيال . . تم توارثتها الأجيال من بعد ذلك . . واختلاف صفة من الصفات الوراثية فى نفس النوع ، من أعجب

أسرار الخلق . . ومن أكثرها إعجازاً . . ونقرأ عن ذلك فى سورة الروم « ٢٢ » فى قوله الله تعالى : ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِلْعَالِمِينَ ﴾ فهى من آيات الله ، التى لا يدرك ملامح الإعجاز فيها إلا العلماء .

ولا تتماثل العوامل الوراثية فى نوع من الخلق ، مع العوامل الوراثية فى نوع آخر من الخلق . . فكل نوع من الخلائق يحمل عوامل وراثية يتميز بها . . وليست موجودة فى نوع آخر . . وبهذا النظام الوراثى المحكم تحتفظ الأنواع بخصائصها العامة ، ولا تتطور إلى نوع آخر من الخلق أبداً . .

ومع اختلاف النظم الوراثية فى أنواع الخلائق . . إلا أنها جميعاً مؤسسة على نفس التصميم البنائى . . ونفس الفطرة . . ووحدة النظام والفطرة فى الخلائق جميعاً ، يدل على وحدانية الخالق تعالى . .

مما سبق نفهم أن فى كل جسم بشرى خلايا . . وفى كل خلية شفرة وراثية مميزة للنوع البشرى كله . . ولا يمكن مهما حدث فيها من طفرات وراثية ـ أن تكون قد تطورت من نوع آخر من الخلق . . ولا يمكن أيضاً أن تتطور فى مستقبل الزمن ، إلى نوع آخر من الخلق . . فالإنسان خُلق إنساناً وسيظل إنساناً . . والقرد خلق قرداً وسيظل قرداً . . والحصان خلق حصاناً وسيظل حصاناً . . وكذلك باقى الخلائق . . وقد تختلف الصفات الخلقية فى البشر على مر الآلاف من السنين . . فتختلف بعض ملامح الجسم فى الإنسان القديم عن الإنسان الجديد . . ولكن لا يختلف النوع أبداً . . فذلك مستحيل علمياً . .

ومادام كل إنسان يحمل فى خلايا جسمه شفرة وراثية بشرية ، انتقلت إليه وراثياً من آبائه وأجداده . . فإننا إذا عدنا إلى الماضى البعيد جداً ، وقفنا عند رجل وامرأة لم يكن قبلهما أب ولا أم . . وليس هناك احتمال علمى آخر . .

والله تعالى يخبرنا بأن آدم أول إنسان على هذه الأرض . . وفى سورة البقرة ٣٠ يقص علينا الله ـ عز وجل ـ قصة خلق الإنسان الأول فيقول جل جلاله :

﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ . وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ﴾ . . وتتحدث الآيات بعد ذلك عن قصة خلق آدم ، ودخوله الجنة ، ما حدث له فيها من أحداث . .

وروى الترمذى عن أبى موسى الأشعرى ـ رضى الله عنه ـ أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال :

ـ « إن الله خلق آدم من قبضة من جميع الأرض » . الخ الحديث الشريف . .

وقال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أيضاً : [كلكم لآدم وآدم من تراب] .

و« آدم » اسم مشتق من أديم الأرض . . فسُمى آدم بما خلق منه وشاءت إرادة الله تعالى أن يخلق جسم آدم طوراً بعد طور . . ولم يخلقه فى لمح البصر . . والله ـ عز وجل ـ قادر على ذلك فهو القائل : ﴿ وماأمرنا إلا واحدة كلمح بالبصر ﴾ ، فكان خلق آدم أطواراً من التسوية يعقب بعضها بعضا . . ولم يشهد أحد من البشر خلق السماوات والأرض ولا خلق آدم . . فينبغى إذن على أى إنسان يتحدث عن خلق آدم ، أن يتحدث من خلال مصدر العلم الوحيد عنه ، وهو الوحى الإلهى فى القرآن والحديث النبوى . . وليس هناك مصدر آخر للعلم عن ذلك مطلقاً .

ولقد أخبرنا القرآن العظيم عن مراحل خلق آدم وأطوار تسوية جسمه . . خلق أولاً من تراب ثم من ماء . . فكان الطين . . كما قال الله تعالى فى سورة السجدة ٧ : ﴿ الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنسَانِ مِن طِينٍ ﴾ وتُرك الطين أجلاً معلوماً حتى صار طيناً لازبا ـ أى شديد التماسك ـ كما أخبرنا الله تعالى فى سورة الصافات ١١ ﴿ إِنَّا خَلَقْنَاهُم مِّن طِينٍ لَّازِبٍ ﴾ .

وتُرك جسد آدم زمناً معلوماً حتى صار صلصالاً من حمأ مسنون ، والحمأ : الطين الذى تغير لونه واسود ، والمسنون : المصبوب لييبس ، ويقال سَنَّ الشىء ؛ أى صبّه . . نقرأ عن ذلك فى سورة الحجر ٢٦ فى قول الله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴾ .

وبعد هذا الطور من الخلق . . مضى أجل مسمى عند الله تعالى ، حتى صار الحمأ المسنون صلصالاً كالفخار . . نقرأ عن هذه الحقيقة فى سورة الرحمن ١٤ فى قول الله عز وجل : ﴿ خَلَقَ الْإِنسَانَ مِن صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ ﴾ .

وبعد تمام تسوية جسد آدم . . واكتمال أطوار خلقه ، نفخ الله تعالى الروح فيه . . فصار بذلك بشراً سوياً . . نقرأ عن هذه الحقيقة فى سورة الحجر ٢٨ فى قول الله تعالى - جل جلاله - : ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّى خَالِقٌ بَشَراً مِن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ﴾ . وسُبق فعل نفخ الروح بحرف الواو فقال تعالى : ﴿ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى ﴾ والواو تدل على التتابع مع التراخى فى الزمن . . ونفهم من ذلك ، أن زمناً طويلاً قد مضى بعد تمام تسوية جسد آدم إلى نفخ الروح فيه ، وإلى سجود الملائكة له .

وكان سجود الملائكة لآدم بعد نفخ الروح فيه ، تكريماً من الله تعالى للروح وتشريفاً لها ، فسجود الملائكة لآدم كان سجود تكريم لا سجود عبادة .

وفى سورة الأعراف ١١ يقول الله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ ﴾ .

تخبرنا الآية الكريمة ، أن الله تعالى خلقنا جميعاً وصورنا فى صلب آدم . . وبعد نفخ الروح فى جسم آدم صار بشراً سوياً . . حينئذ أمر الله تعالى ملائكته بالسجود لآدم ، تكريماً للروح التى نفخها فيه . .

ولابد أن يكون خلق جسم آدم من خلايا . . وفى كل خلية شفرة وراثية بشرية ، فيها كل خصائص الجنس البشرى . . وليس هناك احتمال علمى آخر ، ونلاحظ أن ضمير المخاطب فى الآية ، يعود علينا نحن بنى آدم ، فالله تعالى يخاطبنا بالقول : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ﴾ ، ثم يقول بعد ذلك : ﴿ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ ﴾ ، وفى ذلك الدليل على أن الله تعالى أودع كل خلقنا نحن البشر - والمخاطبون فى الآية - فى جسم آدم ، الذى أسجد الملائكة له . .

ولقد كان آدم عليه السلام نبياً . . ولم يذكر القرآن الكريم آدم بهذه الصفة . .

ولكنه يخبرنا أن الله تعالى خاطب آدم وتحدث معه ، وفى ذلك دليل نبوته . . ولقد ذكرت السنة النبوية نبوة آدم ، فقد روى أبو ذر ـ رضى الله عنه ـ قال : قلت يا رسول الله أكان آدم نبياً مرسلاً قال : نعم .

إذن فآدم كان نبياً مرسلاً ودليل نبوته أن الله تعالى خاطبه وأمره ونهاه ودليل نبوته الحديث النبوى الذى ذكرناه ، ودليل نبوته أيضاً أن الله تعالى علمه الأسماء كلها وأعطاه منهج الدين القيم . . وقد يقال : وكيف يكون آدم نبياً رسولاً ، ولم يكن إنسان غيره على الأرض ؟ . .

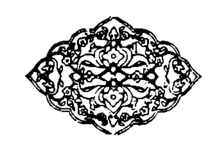
نقول إن الله تعالى لم يجعله نبياً إلا بعد أن أخرجه من الجنة إلى الأرض مع زوجه وتلقى من ربه كلمات ، وفى ذلك يقول الله تعالى فى سورة البقرة ٣٨ : ﴿ قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهاَ جَمِيعاً فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ منىِّ هُدًى فَمن تَبِعَ هُدَاىَ فَلاَ خَوفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ . وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولئِك أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهاَ خَالِدُونَ ﴾ .

وأين خلق الله تعالى آدم ؟ . . الحديث النبوى الشريف يخبرنا أنه خلقه من تراب هذه الأرض . . فآدم خلق فى الأرض . . ولكن فى أى مكان فى هذا العالم ؟ . . يقول بعض المفكرين إنه خلق فى الهند . . وقال آخرون فى بلاد النهرين . . ولكن كل هذه ظنون . . والحقيقة أن أحداً من الناس لم يشهد خلق آدم . . فكيف يتحدث إنسان فيما لم يشاهده . . ويخبرنا الحديث النبوى أن الله تعالى خلق آدم على جبل عرفات . . وذلك فيما رواه الإمام أحمد عن سعيد بن جبير عن ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال : [أخذ الله الميثاق من ظهر آدم بنعمان يعنى عرفة فأخرج من صلبه كل ذرية ذرأها فنثرهم بين يديه كالذر ثم كلمهم قائلاً : ألست بربكم قالوا بلى شهدنا أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين] .

وهذا الحديث النبوى الشريف تفسير لقول الله ـ عز وجل ـ فى سورة الأعراف ١٧٢ : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِى آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُم قَالُوا بَلَىَ شَهِدْنَا أن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ ﴾ .

فعلى جبل عرفات حدث هذا الحدث العظيم . . حدث خلق آدم وإخراجُ كل ذريته ـ أى الجنس البشرى كله ـ وَنثْرِهم بين يدى الله ـ عز وجل ـ كالذر ، وأشهدهم على أنفسهم : ألست بربكم ؟ قالوا : بلى . فردت الملائكة قائلين : شهدنا أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين .

. . وقد يقول إنسان إننى لا أذكر ذلك أبداً . . ونقول له : وهل تذكر ما حدث لك وأنت فى بطن أمك جنيناً ؟ . . فإذا كنت لا تذكر ما حدث لك وأنت حى ، فى بطن أمك جنيناً ، فليس بعجيب ألا تذكر ما حدث لك يوم خَلق آدم على عرفة . . وإن كان الإنسان ينسى ذلك . . فإن فطرة خلقه لا تنسى . . فمعرفة الإنسان بربه وشهادته بذلك هى من فطرة خلقه التى فطر الله خلقه عليها . .



لماذا لم يسجد إبليس لآدم

خلق الله تعالى آدم من تراب هذه الأرض . . وخلقه أطواراً . . وبعد أن سواه ونفخ فيه من روحه ، أمر الملائكة بالسجود له . . سجود تكريم للروح التى نفخها فيه لا سجود عبادة . . فانصاعوا جميعاً لأمر ربهم إلا إبليس كان من الجن ففسق عن أمر ربه ، كما فى سورة الكهف ٥٠ فى قول الله ـ عز وجل ـ :

﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ كان من الجن ﴾ كلام مستأنف ، يجرى معنى التعليل بعد استثناء إبليس من الساجدين لآدم . . فهو جواب لسؤال : ما له لم يسجد إذ أمره ربه ؟

فكان الجواب : كان من الجن ففسق عن أمر ربه . . لأنه لو كان ملكاً ما عصى ربه أبداً لأن الملائكة لا يعصون الله ماأمرهم . .

ولماذا لم يسجد إبليس لآدم إذ أمره ربه ؟ نجد الجواب على ذلك أيضاً فى سورة الإسراء ٦١ فى قول الله ـ عز وجل ـ :

﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ قَالَ أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِيناً ﴾ . . ونجد الجواب أيضاً فى سورة الحجر ٣٢ فى قول الله تعالى :

﴿ قَالَ يَاإِبْلِيسُ مَالَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ . قَالَ لَمْ أَكُنْ لِأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ من صَلْصَالٍ مِّن حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴾ .

ونقرأ فى سورة الأعراف ١١ قول الله جل جلاله :

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ . قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ ﴾ .

نفهم من الآيات الكريمة أن سبب رفض إبليس أن يسجد لآدم ، كان بسبب مادة خلق آدم من طين . . واعتقاده أنه خُلق من مادة أفضل منها وهى النار . .

فما هو الطين الذى خلق منه آدم ، ومم يتكون ؟ . . إنه يتكون من ذرات ، والذرات متناهية فى الصغر . . ولكنها ليست مصمتة . كما كان الناس يعتقدون فى القرنين الماضيين . . بل إن الذرة فى حقيقتها فراغ . . فالمادة فيها بالنسبة لحجمها $\frac{١}{١٠ \text{ بلايين}}$ . . فالذرة تشبه المجموعة الشمسية . . فالمجموعة الشمسية مكونة من الشمس وكواكبها فيها فراغ كونى شاسع رحيب . . ونسبة المادة الصلبة فى المجموعة الشمسية بالنسبة إلى حجم الفضاء الشمسي كله أكثر من $\frac{١}{١٠ \text{ بلايين}}$ ، أى أن المجموعة الشمسية فى حقيقتها فراغ ، وإذا شبهنا حجم الذرة بحجم عمارة من عشرة طوابق مثلاً ، لكانت نواة الذرة فى وسط العمارة فى حجم حبة من الفول . . ولكانت الألكترونات كذرات من الهباء تدور حول العمارة . . وإذا افترضنا جدلاً أن الألكترونات انجذبت إلى النواة لصار حجم أى جسم $\frac{١}{١٠ \text{ بلايين}}$ من حجمه ، فلا يكاد يرى .

فالذرة فى حقيقتها فراغ أو غالبيتها العظمى فراغ . . وبالتالى فإن جسم الإنسان الذى خلق من طين غالبيته العظمى فراغ . . هذه حقيقة لا شك فيها . . لذلك كان احتجاج إبليس بسبب مادة خلق جسم آدم وهى الطين . . وأن جسم آدم فى حقيقته فراغ أجوف .

ونقرأ فى الحديث النبوى فى ذلك علماً ، فقد روى مسلم عن أنس ـ رضى الله عنه ـ أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال : [لما صور الله آدم فى الجنة تركه ما شاء الله أن يتركه فجعل إبليس يُطيف به ينظر ما هو . . فلما رآه أجوف عرف أنه خُلق خلقاً لا يتمالك] ، أى خلقاً ضعيفاً . .

فجعل إبليس يطيف به ينظر ما هو : قال أهل اللغة طاف بالشيء يطوف طوفاً أو طوافاً . . وهو يطيف به إذا استدار حواليه ينظر ما هو .

وقال المفسرون : فلما رآه أجوف : الأجوف صاحب الجوف الذى داخله خال .

وروى الإمام أحمد عن حماد بن ثابت عن أنس ـ رضى الله عنه ـ أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال : (لما خلق الله ـ عز وجل ـ آدم تركه ما شاء الله أن يدعه فجعل إبليس يطيف به ينظر إليه ، فلما رآه أجوف عرف أنه خُلق خلقا لا يتمالك) .

وقال بعض المفسرين المعنى : إن إبليس لما رأى آدم صاحب جوف عرف أنه خلق خلقا ضعيفاً . . إلا أننا لا نرى هذا الرأى . . فلا توجد علاقة بين جوف الإنسان وضعف خلقه . . وهل لو خلق الإنسان بدون جوف كان خلقه أقوى ؟ وكيف عرف إبليس أن جسم آدم أجوف وهو لم يدخل داخله ، وإنما طاف حوله ينظر ما هو كما قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ :

[فجعل إبليس يطيف به ينظر ما هو] . . وعلم إبليس مادة الخلق وعرف أنها من ذرات جوفاء . . وأنه خلقه كله أجوف . . فى غالبيته العظمى فراغ ، وأنه خلق خلقاً ضعيفاً ، لذلك رفض السجود له محتجاً بمادة خلقه فقال لربه : ﴿ أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِيناً ﴾ ، وقال الله تعالى أيضاً : ﴿ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ ﴾ . .

ولقد كان إبليس جاهلاً بأسرار الخلق . . فما كان يعلم أن كل خلق السماوات والأرض من ذرات . . والذرات جوفاء . . فكل الوجود أجوف . . وأعتقد جهلاً منه بالحق أن الخلق من النار أفضل من الخلق من الطين . . وما علم أن النار مكونة من ذرات جوفاء أيضاً . . لا تختلف عن الذرات التى تكوّن الطين . . فساقه جهله وعناده إلى الكفر والضياع .

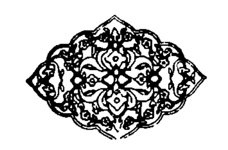
ولقد غاب عن إبليس أشياء . . وارتكب الكثير من الخطايا . . ففضلاً عن جهله بمادة خلق جسم آدم ، ومادة خلق جسمه هو . . فإن الله تعالى ما أمره بالسجود لآدم

كجسد من طين . . ولكن أمره بالسجود للنفخة الربانية التى أودعها فى جسد آدم نقرأ عن ذلك فى قول الله تعالى فى سورة الحجر ٢٨ ـ ٣٣ :

﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّى خَالِقٌ بَشَراً مِّن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ . فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ . فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ . إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى أَن يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ . قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَالَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ . قَالَ لَمْ أَكُن لِّأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴾ .

فالله تعالى أمره بالسجود لسبب من الأسباب . . فرفض السجود لسبب آخر . . ثم نظر إلى مادة خلق آدم وعرف أنها خلق أجوف . . ولم ينظر إلى مادة خلقه هو ولو عرفها لعلم أنها خلق أجوف كذلك . . ولما قال : (أنا خير منه خلقتنى من نار وخلقته من طين) . . وأخطأ فى حق ربه وعصى أمره ، وبذلك حق عليه قول الله تعالى فى سورة الحجر ٣٤ ـ ٤٣ :

﴿ قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ . وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ . قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِى إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ . قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ . إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ . قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِى لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِى الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ . إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ . قَالَ هَذَا صِرَاطٌ عَلَىَّ مُسْتَقِيمٌ . إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ . وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ .



تاريخ آدم وزوجه فى الجنة

أين خلق الله تعالى آدم ؟ . . ومتى أسكنه الجنة ؟ وما هى الجنة التى أسكنه إياها ؟ ولم أسكنه الجنة وأخرجه منها ؟ وماذا حدث له فى الجنة وبعد خروجه منها ؟ لا يستطيع إنسان أن يجيب عن كل هذه الأسئلة . . فلا علم لأحد من الناس بها ، فإن الله تعالى لم يشهد أحداً من خلقه ، خلق السماوات والأرض ولا خلق أنفسهم . . كما فى سورة الكهف ٥١ فى قول الله ـ عز وجل ـ

﴿ مَا أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَلاَ خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتَ مُتَّخِذِ الْمُضِلِّينَ عَضُداً ﴾ .

ونجد الإجابة عن هذه الأسئلة فى القرآن والحديث النبوى . . مجملةً تارة ومفصلة تارة أخرى . . بما يهم الإنسان فى دينه ودنياه ، من أخذ العبرة والدرس ، عما حدث بين أول إنسان وبين إبليس . . لأنها أحداث تحدث كل يوم . . من أول آدم وإلى أن تنتهى الأرض ومن عليها . . تحدث بين كل إنسان من ذرية آدم ، وبين الشيطان من ذرية إبليس . . فيطلعنا الله تعالى على قصة آدم ، لنأخذ الدرس منها ونستوعبه . . ونأخذ العبرة ونتعلم منها ما ينبغى أن نفعله فى تعامل الشيطان معنا . .

نقرأ عن قصة بدء خلق آدم فى سورة البقرة ٣٠ فى قول الله ـ عز وجل :

﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلاَئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى الأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّى أَعْلَمُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ . وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلاَئِكَةِ فَقَالَ أَنبِئُونِى بِأَسْمَاءِ هَؤُلاَءِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ . قَالُوا سُبْحَانَكَ لاَ عِلْمَ لَنَا إِلاَّ مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ . قَالَ يَاآدَمُ

أَنبِئْهُم بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنبَأَهُم بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُم إِنِّى أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ . وَإِذ قُلْنَا لِلْمَلاَئِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ أَبِى واسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ . وَقُلْنَا يَاآدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الجَنَّةَ وَكُلاَ مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلاَ تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرة فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ . فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا ﴾ .

﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلاَئِكَةِ ﴾ « إذ » و« إذا » حرفا توقيت ، إذ للماضى ، وإذا للمستقبل ، فقوله تعالى : ﴿ إذا جاء نصر الله والفتح ﴾ أى يجىء مستقبلاً . .

وقوله تعالى : ﴿ وإذ قال ربك للملائكة ﴾ أى حين حدث هذا قديماً . .

﴿ إنى جاعل فى الأرض خليفة ﴾ جاعل هنا بمعنى خالق . . وخليفة أى البشر من بنى آدم يخلف بعضهم لبعضا .

﴿ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ ﴾ قيل إن الله تعالى أعلم الملائكة أنه إذا جعل فى الأرض خلقاً أفسدوا وسفكوا الدماء ، لذلك سألوه حين قال لهم : ﴿ إنى جاعل فى الأرض خليفة قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ﴾ . . فالملائكة لا تعلم إلا ما أُعلمت به ولا تعلم الغيب . . ﴿ وعلم آدم الأسماء كلها ﴾ أى علمه كل شىء فى هذه الأرض وسمى له كل شىء باسمه .

﴿ وَقُلْنَا يَاآدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ ﴾ لا خلاف أن الله تعالى أخرج إبليس عند كفره من الجنة وأبعده عنها . . وبعد إخراجه قال لآدم اسكن أنت وزوجك الجنة . . وقوله (اسْكُنْ) تنبيه على الخروج ، لأن السكنى لا تكون ملكا ، وقال بعض العارفين : السكنى تكون إلى مدة ثم تنقطع . . فدخولهما الجنة ، كان دخول سكنى ، لا دخول ملك وإقامة دائمة ﴿ فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا ﴾ أى صرفهما عما كانا عليه من الطاعة إلى المعصية .

وفى سورة الأعراف ١٩ يقول الله تعالى :

﴿ يَاآدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الجَنَّةَ فَكُلاَ مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلاَ تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ . فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ ﴾ .

لقد أباح الله تعالى لآدم وزوجه كل ثمار الجنة والأرزاق فيها . . إلا شجرة واحدة حرمها عليهما ، وحذرهما من الاقتراب منها . . ولعل الله تعالى أراد لهذه الشجرة أن تكون رمزاً لكل ما نهى عنه فى الدنيا . . فبغير الممنوع عمله والمحظور إتيانه ، لا توضع الإرادة موضع التجربة ، ولا يمتحن الاختيار فى الإنسان . . ويُعرف مدى صبره وطاعته وإيمانه . . ولا يعنينا نوع هذه الشجرة وثمرها . . فالله تعالى جعل منها أداة لاختبار طاعة آدم وعزمه . . والله تعالى أعلم . . ولكنه أراد أن يقيم الحجة على عباده من أفعالهم . . واستمع آدم إلى وسوسة الشيطان ، ونسى أمر الله له ، فأزلهما الشيطان عنهما . . وفى سورة طه ١١٥ يقول الله تعالى عن آدم : ﴿ وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَىٰ آدَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا ﴾ . .

ولقد خلق الله تعالى آدم من تراب الأرض ، وبدأ خلقه من طين ثم صار حمأ مسنوناً ، ثم صار صلصالاً كالفخار ، ثم سواه الله تعالى ونفخ فيه الروح بعد ذلك ، ثم أمر الملائكة بالسجود له تكريماً للروح التى نفخها فيه ، وتشريفاً لها . .

وأين خلق الله تعالى آدم ؟ إنه خلق فى هذه الأرض . . ولم يخلق فى الجنة . . ودليل ذلك ماوراه الإمام أحمد عن ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال :

[أخذ الله الميثاق من ظهر آدم بنعمان يعنى عرفة فأخرج من صلبه كل ذرية ذرأها ونثرهم بين يديه كالذر ثم كلمهم قائلاً : ألست بربكم قالوا بلى شهدنا أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين] .

فآدم خُلق فى عرفة أو بالقرب منها ، وأسجد الله تعالى له الملائكة على هذا الجبل ، ثم أسكنه الجنة بعد أن خلق له زوجه . . فلم يدخل الجنة وحده . . وإنما دخلها وزوجه معه . . وجاءت حقيقة إسكان آدم وزوجه الجنة فى موضعين فى القرآن الكريم ، فى سورة الأعراف والبقرة .

إذن فحواء خلقت من جسم آدم . . فكلاهما من نفس واحدة . . وجعل منها زوجها ليسكن إليها . . هذا ما أخبرنا به القرآن الكريم . . وأخبرنا الحديث النبوى

أيضاً شيئاً من التفصيل فى هذه القضية ، فأخبرنا أن حواء خلقت من ضلع . . ولم يكن هناك من دليل علمى يدل على أن حواء خلقت من جسم آدم . . حتى جاء علم الوراثة حديثاً بالدليل فالشفرة الوراثية واحدة ومتماثلة فى كل من الرجل والمرأة ، مما يدل على أنهما من أصل واحد ، ومن نفس واحدة . . وجاء علم الأحياء أيضاً بدليل من خلق كائنات حية من جسم كائنات حية مماثلة لها تماماً . . فبعض الكائنات الرقيقة كالبراميسيوم تتكاثر تكاثراً انقسامياً . . ويكوّن زوجاً له من جسمه ، مطابقاً له فى كل شىء ولا ينقص منه شيئاً . . وحيوان الهيدرا فى الماء يكوّن أزواجاً مماثلة له فى كل شىء بطريق التبرعم ولا تنقص من جسمه شيئاً . . فالحامض النووي الذى يحمل عوامل الوراثة ينشطر إلى نصفين . . كل نصف يكّمل نصفه الآخر ، ويعود كما كان فى كل من الجسمين وخلق حواء من ضلع آدم لا ينقص آدم ضلعاً من أضلاعه ؛ ولا ينقص من جسمه شيئاً .

وفى سورة البقرة ٣٥ يقول الله ـ عز وجل ـ :

﴿ وقُلنا ياآدمُ اسْكُنْ أنتَ وزَوجُكَ الجَّنَة وكُلا منها رَغداً حيثُ شِئتُمَا ﴾ . . ولقد خلق الله حواء فى الأرض . . خلق الله آدم أولاً . . ثم خلق الله زوجه من جسمه . . وقد يكون ذلك من بعض المعانى فى سورة الأعراف ١٨٩ فى قوله تعالى :

﴿ هُوَ الَّذِى خَلَقُكم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا ﴾ .

وقال جمهور المفسرين : إن المراد بالنفس الواحدة آدم ، وجعل منها زوجها ، أى حواء ، فخلق الله تعالى حواء من جسم آدم ليسكن إليها . . وبيّن الحديث النبوى أنها خلقت من ضلع .

وروى البخارى عن أبى هريرة ـ رضى الله عنه ـ أن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال :

[استوصوا بالنساء فإن المرأة خلقت من ضلع وإن أعوج شىء فى الضلع أعلاه فإن ذهبت تقيمه كسرته وإن تركته لم يزل أعوج فاستوصوا بالنساء خيراً] .

وفى رواية مسلم أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال :
[إن المرأة كالضلع إذا ذهبت تقيمها كسرتها وإن تركتها استمتعت بها وفيها عوج] .

وقيل فى التفسير إن حواء أخرجت كما تخرج النخلة من النواة .
وقال القرطبى : يحتمل أن يكون المعنى أن المرأة خلقت من مبلغ ضلع فهى كالضلع . .
ولكن الله ـ عز وجل ـ قدر أن يخلق الإنسان فى أحسن تقويم كما قال ـ عز وجل ـ : ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِى أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴾ .

فكيف يخلق الله تعالى نصف البشر فى خلق معوج . . والاعوجاج فى الخلق يتناقض مع حسن التقويم ؟ وفى رأينا أن المفسرين للحديث لم يتوصلوا إلى التفسير الصحيح ، ولم يدركوا المعنى المقصود . . ولقد ساعدنا العلم فى عصرنا هذا على فهم المغزى العلمى الصحيح فى الحديث النبوى .

الرئتان والقلب فى جسم الإنسان ـ أهم الأعضاء فيه ، ولابد من حمايتهما وإلا هلك الإنسان . . وحماية الرئتين والقلب لا تتم أبداً إلا باعوجاج الأضلاع وانحنائها . . فاعوجاج الضلوع يجعلها تحيط بالرئتين والقلب وتحميها من كل اتجاه . . فوصف خَلْقِ المرأة من ضلع أعوج ، لا يتنافى مع حسن التقويم فى خلقها . . فإن اعوجاج الضلوع من تمام الفطرة التى فطر الله خلقه عليها . . فاعوجاج الضلع استقامته على الفطرة السليمة . . ولو خلقت المرأة بنفس صفات الرجل وفطرته على البأس والقوة والشدة والصلابة ، ما سكن الرجل إليها . . وما استمتع بحنانها . . وما شعر أنها تكمله وتحنو عليه . . ولما تحملت هى نفسها تربية الأجيال . . الأمر الذى يستلزم وجود العطف والصبر والحنان ، الذى يفتقر إليه خَلْق الرجال . . والمرأة مثلها مثل الضلع الأعوج . . ولو خلقت مستقيمة ما صلحت فى الجسم لأى وظيفة . . وماأدت عملاً مفيداً . . وما استفاد الجسم منها شيئاً . . ولو

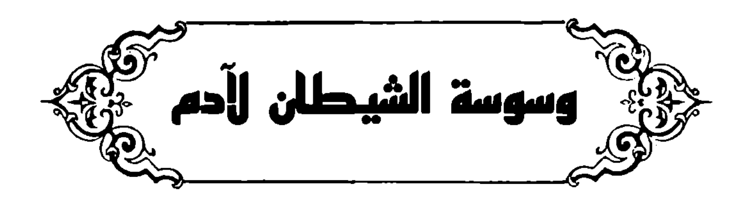
حاولنا جعل الضلع مستقيماً لكسرناه ولأفسدنا فطرة خلقه التى فطره الله تعالى عليها . . ولأصاب الضرر البدن كله فاعوجاج الضلع هو استقامته على فطرته السليمة . . وفى ذلك كمال الخلق وإتقانه وجماله وبهائه . . وما ينبغى أن نغير من كمال الخلق وبهائه شيئاً . . وإلا أفسدنا كل شىء . . هذا فى رأينا المغزى العلمى فى حديث سيدنا رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : (استوصوا بالنساء فإن المرأة خلقت من ضلع وإن أعوج شىء فى الضلع أعلاه ، فإن ذهبت تقيمه كسرته ، وإن تركته لم يزل أعوج فاستوصوا بالنساء خيراً) .

ولقد خلق الله تعالى حواء من خلايا جسم آدم ، لذلك كانت خلايا جسمها صورة مطابقة لخلايا جسم آدم . . والعوامل الوراثية فيها هى نفسها الموجودة فى خلايا جسم آدم إذا استثنينا العوامل الوراثية المسئولة عن صفات الأنوثة فى المرأة . .

وسميت حواء لأنها خلقت من حى . . وما أن خلق الله حواء حتى سكن آدم إلى حواء وسكنت هى إليه لأنها من نفسه ، وجعل الله تعالى بينهما المودة والرحمة كما قال الله تعالى فى سورة الروم ٢١ :

﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ . .





وسوسة الشيطان لآدم

جاءت قصة وسوسة الشيطان لآدم فى القرآن الكريم . . وجاء ذكرها أيضاً فى تراجم العهد القديم فى سفر التكوين . . وزعم أعداء الإسلام أن النبى محمداً - ﷺ - نقل القرآن عن تراجم العهد القديم . . كما فى سورة الفرقان (٤ - ٦) فى قول الله عز وجل :

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلا إِفْكٌ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ فَقَدْ جَاءُوا ظُلْماً وَزُوراً . وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الأَولِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِىَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلاً . قُلْ أَنزَلَهُ الَّذِى يَعْلَمُ السِّرَّ فِى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا رَّحِيماً ﴾ .

ولو كان الرسول - ﷺ - نقل كما يزعمون عن تراجم العهد القديم ، لذكر القرآن مثل ما ذكرت تلك التراجم . . ولكننا نجد اختلافاً كبيراً بين ما ذكره القرآن من الحق وبين ما ذكرته تلك التراجم من أحاديث . . ومن أمثلة ذلك ما ذكر فى سفر التكوين عن قصة آدم وحواء وما حدث لهما مع الشيطان . . تقول تلك التراجم [نهى الربُ آدم عن أكل شجرة المعرفة . وأن الشيطان كان على شكل حية نصب شركا لحواء ، فلما أكلت حواء من الشجرة ، أغوت آدم فأكل منها] .

وذكر فى سفر التكوين أيضاً [ولأن آدم وحواء كانا عرايا فى الجنة فقد اختبأ آدم وحواء عندما سمعا أقدام الرب وهو ماشٍ فى الجنة] .

وتطاولوا على الله عز وجل أكثر وأكثر فذكر فى سفر التكوين أيضاً افتراء على الله تعالى وكفرا وضلالا كتبوا ما يأتى : [ولم يعرف الرب مكانهما فنادى الرب ياآدم أين أنت ؟ فقال آدم أنا هنا : قال الرب : لماذا أنت تختبىء ؟ فقال آدم : سمعت صوتك فخشيت لأنى عريان فاختبأت منك] .

هذه أمثلة لبعض ما كتب المترجمون فى سفر التكوين فى العهد القديم . . ولن نعلق على ذلك . . لأن الكذب والافتراء والتطاول على الله عز وجل ظاهر لا يحتاج إلى بيان . . ولكننا نقول إن ماذكره القرآن الكريم من حق وصدق كان مختلفا تماما عن تلك الأكاذيب :

أولاً : لم يذكر القرآن الكريم إن الشيطان كان على شكل حية . . وإنما ذكر إبليس .

ثانياً : لم يذكر القرآن أن إبليس وسوس لحواء فأكلت من الشجرة وأغوت آدم فأكل معها .

كل ذلك لم يحدث والذى حدث أن الشيطان وسوس لآدم . . وإن آدم هو الذى عصى ربه . . نقرأ عن ذلك فى سورة طه (١٢٠ ـ ١٢١) فى قول الله تعالى :

﴿ فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَاآدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لاَ يَبْلَى . فَأَكَلاَ مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَاتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى . ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى ﴾ .

نفهم من الآيات الكريمة فى سورة طه : إن الشيطان وسوس لآدم أولاً وما أكلت حواء من الشجرة المحرمة ، إلا بعد أن رأت آدم يأكل منها ، كما قال الله تعالى (فَأَكَلاَ مِنْهاَ) شأنها فى ذلك شأن أى امرأة تفعل ما يفعل زوجها . . فيقع العصيان أولاً على آدم وليس على حواء كما قال الله تعالى : ﴿ وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى . ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى ﴾ .

ثالثاً : ذكر فى سفر التكوين فى تراجم التوراة أن آدم وحواء فى الجنة كانا عرايا . . ولكن القرآن الكريم حدثنا بالحق فآدم وزوجه لم يكونا عرايا . . بل كانا يلبسان ملابس قبل أن يأكلا من الشجرة المحرمة . . ويقول الله تعالى فى سورة الأعراف (٢٦) :

﴿ يَابَنِى ءَادَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَارِى سَوْءَاتِكُمْ وَرِيشاً وَلِبَاسُ التَّقْوَى ذَلِكَ

خيْرٌ ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ الله لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ . يَابَنِى آدَمَ لاَ يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطانُ كَما أَخْرجَ أَبَوَيكُم من الْجَنةِ ينزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوءَاتِهِماَ ﴾ .

رابعاً : تتحدث تراجم التوراة عن قصة حواء والشيطان الذى كان على شكل حية فأغواها فعصت ربها . . فأكل آدم منها . . ولكن الحقيقة مختلفة تماماً . . بل على عكس ماذكرت تراجم التوراة . . فقرأ الحق فى سورة طه (١١٥ ـ ١٢٢) .

﴿ ولقد عَهِدْنَا إلى آدَمَ من قَبْلُ فنسِىَ ولَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا . وإذْ قُلنا للمَلاَئِكَةِ اسجُدُوا لآدمَ فَسَجَدُوا إِلاَّ إبليسَ أَبَى . فقُلنا ياآدمُ إنَّ هذا عَدُوٌّ لَكَ وَلِزَوْجِكَ فلا يُخْرِجَنَّكُمَا من الْجَنَّةِ فَتَشْقَى . إِنَّ لَكَ أَلاَّ تَجُوعَ فِيهَا وَلاَ تَعْرى.وأنَّكَ لاَ تَظْمأُ فِيهَا وَلاَ تَضْحَى ﴾ .

تتحدث الآيات الكريمة عن عصيان آدم وحده . . وعن نسيانه وأنه لم يكن له عزم ولم يأت ذكر لزوجه فى ذلك .

خامساً : يقول الله تعالى : ﴿ فَقُلْنَا يَاآدَمُ إنَّ هَـذَا عَدُوٌّ لَـكَ وَلِزوْجِـكَ فَلاَ يُخْرِجَنَّكُماَ مِنَ الجنة فَتَشْقَى ﴾ . فتحذير الله كان لآدم وحده . . والضمير فى قوله تعالى (فتشقى) يعود على آدم وحده . . فإذا خرج آدم وزوجه من الجنة ، فإن الشقاء خارج الجنة ينتظر آدم وحده . . وقال الله تعالى : (فتشقى) مع تحديد مطالب الحياة الأربعة الأساسية التى كفلها الله تعالى له فى الجنة بدون أى سعى منه لها . . ولكنه وفرها له فى الدنيا ، ولكن دون ذلك الجهد منه والشقاء . . قال تعالى : ﴿ إنَّ لَكَ أَلاَّ تَجُوعَ فِيهاَ وَلاَ تَعْرَى . وَأَنَّكَ لاَ تَظْمأُ فِيهاَ وَلاَ تَضْحَى ﴾ فذكر المطالب الأربعة الأساسية لحياة الإنسان الطعام والكساء والشراب والسكن .

فالله تعالى أناط بآدم مسئولية السعى فى الحصول على مطالب الحياة له ولأسرته فى الدنيا . . وأعفى حواء منها . . وكذلك الأمر فى ذريتهما من بعدهما .

وما هو دور المرأة منذ بدء الخليقة إلى الآن وقد حمل آدم المسئولية كلها ؟ إن دور المرأة دور جليل . . إنه استمرار النوع واستمرار الحياة على هذه الأرض . . وعليها تقع مسئولية أكبر أهمية من مسئولية الرجل . . إنها مسئولية تربية الأجيال . . وإضفاء

السكينة والحب والمودة والرحمة على البشرية جمعاء .. إنها الأخت والـزوج والأبنة .. وهى الأم أولاً وأخيراً ، ولها عند أبنائها وزوجها ووالديها تقدير كبير .. ولها عند خالقها مكانة أعظم .. فقد أخرج ابن ماجه والإمام أحمد أن النبى - ﷺ - قال : (الجنة تحت أقدام الأمهات) ، وروى الطبرانى عن طلحة بن معاوية السنى رضى الله عنه قال : أتيت رسول الله - ﷺ - فقلت يارسول الله : أريد الجهاد فى سبيل الله .. قال : أمك حية ؟ .. قلت نعم قال - ﷺ - : إلزم رجلها فثم الجنة ..

وظن بعض الناس تعارضا بين هذا الحديث النبوى وحديث نبوى آخر رواه البخارى عن عمران بن حصين أن النبى - ﷺ - قال : (اطلعت على الجنة فرأيت أكثر أهلها الفقراء .. وأطلعت على النار فرأيت أكثر أهلها النساء) فكيف يكون الأمر كذلك والجنة تحت أقدام الأمهات ؟

إنه لا تعارض بين الحديثين الشريفين .. فإذا كان أكثر أهل النار من النساء فذلك هو حسابهم عند ربهم تبارك وتعالى .. وتلك هى علاقة العبد بربه يوم الحساب ، ولكن الله تعالى جعل الجنة للإنسان تحت أقدام الأمهات .. فتلك هى علاقة العبد بالعبد فى الحياة الدنيا .. تنتهى بانتهاء هذه الحياة .. وهى علاقة تختلف تماما عن علاقة العبد بربه فى الحياة الأخرة .. فلا تعارض بين الحديثين الشريفين إذن .. وعندما أهبط الله آدم وحواء إلى الأرض لم يجعل لآدم مع الجنة صلة ، ولم يجعل للرجال من ذريته مع الجنة صلة ، إلا عن طريق حواء فى شخص أمهاتهم . وعوض حواء وبناتها عن حرمانهن من الجنة بسبب خطأ ارتكبه آدم .. فجعل بينهن وبين الجنة فى الدنيا اتصالا وجعل الرفق بهن من قبل أبنائهن وخفضهم جناح الذل لهن من الرحمة ، طريقا للناس جميعا إلى الجنة ، وسبيلا إلى مغفرة الله ورضوانه .. وجعل الله تعالى سعى زوجها إلى رضاها واسعادتها .. سعياً عند الله مشكوراً .. وطاعة لرسول الله - ﷺ - الذى قال (فاستوصوا بالنساء خيراً) .

الجنة التى أسكن الله فيها آدم وزوجه

فى سورة البقرة (٣٥) قال الله عز وجل :

﴿ وَقُلْنَا يَاآدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلاَ مِنْهَا رَغداً حَيْثُ شِئْتُمَا وَلاَ تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ ﴾ .

وقد خلقت حواء من جسم آدم قبل دخول الجنة . . فهى خلقت مثله على هذه الأرض . . وما أن خلقا معاً حتى أدخلهما الله تعالى الجنة وأسكنهما فيها . . وما هى الجنة التى أسكن الله آدم وحواء فيها ؟. وأين كانت ؟

لقد أعد الله تعالى لعباده الصالحين بعد هذه الحياة الدنيا جنات كثيرة . . وصفها الله تعالى فقال عنها : ﴿ عرضها كعرض السموات والأرض ﴾ فهى إذن ليست فى هذه السماوات والأرض . . ولكنها ملكوت آخر أو ملكوتات أخرى يعلمها الله تعالى . . والجنات أنواع . . منها جنات عدن . . وجنة الفردوس . . وجنة المأوى . . والجنة العالية . . والجنة التى تجرى من تحتها الأنهار . .

وما هى الجنة التى أسكن إليها فيها آدم وزوجه ؟

إنه خلق وزوجه على الأرض لا شك فى ذلك . . فهل صعد الله تعالى به وبزوجه فى السماء وأسكنه إحدى جناته ؟

اختلف العلماء فى ذلك . . فقال بعضهم إنها كانت فى الأرض . . وقال آخرون إنها كانت فى ملكوت الجنة . . ونرجح أنها كانت فى الأرض . . فآدم خلق من تراب هذه الأرض . . ولم تذكر آية قرآنية أو حديث نبوى أن الله صعد بهما إلى السماء .

أولاً : وفى سورة البقرة (٣٦ ـ ٣٨) يقول الله عز وجل :

﴿ فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ

وَلَكُمْ فِي الأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ . فَتَلَقَّى آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ . قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ .

قال بعض المفسرين : قوله تعالى ﴿ اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا ﴾ يدل على أنها جنة فى السماء ، وقال آخرون ـ ونحن نرجح هذا الرأى ـ قوله تعالى لا يدل على أن تلك الجنة كانت فى السماء . . لأن الفعل « هبط » فى اللغة بمعنى « اتجه » أو « انتقل » كما قال الله تعالى : ﴿ اهْبِطُوا مِصراً فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ ﴾ أى انتقلوا إلى مصر فإن مصر فيها ما سألتم . وقوله تعالى : ﴿ قِيلَ يَانُوحُ اهْبِطْ بِسلاَمٍ مِنَّا ﴾ أى انتقل إلى مكان آخر فى الأرض .

ثانياً : جنة الخلد الموعودة ليست دار تكليف . . والله كلّف آدم وحواء ألا يأكلا من الشجرة ، وذلك يدل على أن تلك الجنة كانت فى الأرض . .

ثالثاً : لو كانت هى جنة الخلد ، ما قال إبليس لآدم ﴿ **هل أدلك على شجرة الخلد وملك لا يبلى** ﴾ فكيف يدله على شجرة الخلد . . وهو فى جنة الخلد وملك لا يبلى ؟. فلابد أنه كان فى جنة لا خُلد فيها . . والجنة التى لا خلد فيها تكون فى الأرض . .

رابعا : الجنة الموعودة فى الدار الآخرة من يدخلها لا يخرج منها . . كما قال الله تعالى فى سورة الحجر (٤٨) ﴿ وَمَا هُمْ مِنْهَا بِمُخْرِجِينَ ﴾ والله تعالى جعل الخلود لأصحاب الجنة فقال ﴿ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً ﴾ بينما أخرج آدم من الجنة . . فلابد أن الجنة التى أسكن آدم فيها وأخرجه منها كانت فى الأرض .

خامساً : لو كانت الجنة التى أسكن الله فيها آدم وزوجه جنة الخلد ، ما وسوس الشيطان فيها لآدم . . فالشيطان لا يسمح له بدخول الجنة أبداً . . ولا مكان له فيها قط . وهناك من الآراء من تقول إنها كانت جنة الخلد . . فقد قال أبو إمامة إن أهل

السنة مجمعون على أن جنة الخلد هى التى أهبط الله منها آدم . . واعتمدوا في ذلك على دليلين :

الأول : لدخول أداة التعريف عليها . . ولو كانت بستانا في الأرض لذكرت نكرة . . ولكن القرآن العظيم ذكرها معرفة بأداة التعريف قال : ﴿ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ ﴾ ولو كانت فى الأرض لنكّرها وقال اسكن أنت وزوجك جنة .

الثانى : لا يمكن لآدم أن يطلب شجرة الخلد وهو يعلم أنه في دار الفناء . . ولقد كان آدم أرجح الخلق عقلا . . وقد علمه الله الأسماء كلها . . فدل ذلك على أنها لم تكن فى الأرض . .

وسواء كانت الجنة التى أسكن الله آدم وزوجها فيها فى الأرض أو فى السماء . . فلقد كانت تجربة لابد منها لهما ولذريتهما . . وإلى يوم القيامة . . وذلك فى المعركة اليومية بين الإنسان والشيطان . . وبين الخير والشر فى الحياة الدنيا ، فيستعمل الإنسان عقله فيما يعود عليه بانتصاره على الشر . . وانتصاره على الشيطان . . وليتذكر جيداً أن الشيطان أكبر أعدائه فى هذه الحياة الدنيا كما قال الله تعالى لنا فى سورة الكهف : ﴿ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلاً ﴾ .

وحذرنا الله تعالى فى سورة الأعراف (٢٧) فى قوله تعالى :

﴿ يَابَنِي آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَاتِهِمَا إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ .

ولقد أجمل الله تعالى قصة آدم وزوجه ، وما حدث لهما فى الجنة مع الشيطان ، فى أربع آيات فى سورة البقرة ٣٠ ـ ٣٧ فى قوله تعالى :

﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ .

وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلاَئِكَةِ فَقَالَ أَنبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلاءِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ . قَالُوا سُبْحَانَكَ لاَ عِلْمَ لَنَا إِلاَّ مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ . قَالَ يَاآدَمُ أَنبِئْهُم بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنبَأَهُم بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُم إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ . وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلاَئِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ . وَقُلْنَا يَاآدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلاَ مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلاَ تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ . فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ . فَتَلَقَّى آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴾ .

هذا ما حدث فى بداية خلق الإنسان . . وكيف جعله الله خليفة فى هذه الأرض . . وكيف علمه الأسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة . . وكيف أمر الملائكة بالسجود لآدم بعد نفخ الروح فيه ، فسجدوا جميعا ورفض إبليس السجود . . وكيف أدخل الله آدم وزوجه الجنة . . وكيف أزلهما الشيطان عنهما وأخرجهما مما كانا فيه . إنها قصة البشرية الأولى . . والدرس الأول والأكبر للمعركة بين الخير والشر . . بين الإنسان والشيطان . . وهى معركة دائمة دائبة مادام الإنسان والشيطان على هذه الأرض ، ونلاحظ فى قصة خلق آدم وزوجه وما حدث بينهما وبين الشيطان ، نلاحظ الاختلاف الكبير بين ما ورد فى تراجم العهد القديم وبين ما جاء بالقرآن الكريم والحديث النبوى الشريف ، ، ولقد زعم أعداء الإسلام أن النبى - ﷺ - نقل عن تراجم الكتب السابقة ، وأساطير الأولين ، كما جاء فى سورة الفرقان ٤ - ٦ في قول الله عز وجل .

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلاَّ إِفْكٌ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ فَقَدْ جَاءُوا ظُلْمًا وَزُورًا . وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلاً . قُلْ أَنزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ .

ولو كان الرسول - ﷺ - نقل كما يزعمون ظلما وزورا عما كتب فى تراجم الكتب

السابقة ، لذكر القرآن والحديث النبوى ما ذكرت تلك التراجم والأساطير . . ولكننا نجد اختلافاً كبيراً بينهما ، كما فى قصة خلق آدم وحواء مثلا . .

وهنا كلمة لابد منها ، نوجهها للكتاب والمفكرين الذى يكتبون فى مثل هذه الأمور : إنه ليس من منهج الفكر الإسلامى الهجوم على العقائد الأخرى وكشف أخطاء ما ذكر فى كتبها وتراجمها . . وليس من التصرف الإسلامى الصحيح أن نكذب أهل العقائد الأخرى فيما يعتقدون ويقولون . . أو أن نُعرض عن الاستماع إليهم . . فالرسول ـ ﷺ ـ علمنا أن نتحدث مع أهل الكتاب ـ إلا فيما يختص بالشرعيات والأحكام ـ ولكن لا نصدقهم ولا نكذبهم ـ فيما سكت عنه القرآن والسنة .

وروى البخارى ومسلم والإمام أحمد والترمذى عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه أن حبراً من أحبار اليهود جاء إلى رسول الله ـ ﷺ ـ وقال : يامحمد إنا نجد أن الله يجعل السماوات على أصبع والأرضين على أصبع والشجر على أصبع والماء والثرى على أصبع وسائر الخلق على أصبع فيقول أنا الملك . . فضحك رسول الله ـ ﷺ ـ حتى بدت نواجذه ، فلم يعرض عن الاستماع إليه ، ولا أعلن تكذيبه له . . ولكنه ضحك حتى بدت نواجذه . . مع أن الحبر كان مخطئا ، لأن الشجر والماء والثرى كله على الأرضين ، فإذا كانت الأرضين على أصبع فالشجر والماء والثرى على نفس الأصبع . . وليس كل منها على أصابع مختلفة . . ومع ذلك لم يكذبه رسول الله ـ ﷺ ـ وتبسم فى وجهه ، ولكنه نطق بالحق وقرأ قول الله عز وجل فى سورة الزمر (٦٧) :

﴿ وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَٰوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ . فالرسول ـ ﷺ ـ علمنا ألا نسفه معتقدات أهل الكتاب ، وألا نحاول إثبات خطأ معتقداتهم . . فهذا ليس من المنهج الإسلامى الصحيح . . ونذكر هنا قول الله عز وجل عن أهل الكتاب **﴿ وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾** .



الخلق فى الأجنة

خلق الله تعالى البشر جميعا يوم خلق آدم . . وأودعهم جميعا فيه . . ويوم الميثاق بعرفة نثرهم الله تعالى بين يديه كالذر وأشهدهم على أنفسهم قائلا ألست بربكم ؟ قالوا بلى شهدنا أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين .

. . وجعل الله تعالى لكل إنسان أجلا يخرج فيه إلى الحياة الدنيا . . من أب وأم قدرهما له ، فالله تعالى خلق ونسب كما قال الله عز وجل . فى سورة الفرقان ٥٤ .

﴿ وَهُوَ الَّذِى خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَراً فَجَعَلَهُ نَسَبًا وَصِهْراً وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيراً ﴾ .

فجعله نسبا وصهرا فهما رباط كل قربى بين البشر . . وكلمة « صهر » اشتقت من صهر الشىء أى خلطه . . فكل واحد من الصهرين قد خالط صاحبه . . فسميت المناكح صهراً ، لاختلاط الناس بها . .

ولا يكون النسب للإنسان إلا فى الحياة الدنيا . . أما فى الحياة الآخرة فلا ينتسب الإنسان لأحد . . كما فى سورة المؤمنون ١٠١ فى قول الله عز وجل :

﴿ فَإِذَا نُفِخَ فِى الصُّورِ فَلاَ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلاَ يَتَسَاءَلُونَ ﴾ .

وهذا موضوع له حديث آخر . .

ومنذ خلق الإنسان على هذه الأرض . . وهو يفكر كيف خلق فى بطن أمه . . ؟ وظل يفكر فى ذلك قرونا وقرونا . . وظل يدرس ويبحث . . وخَلْقُ الإنسان فى بطن أمه يخضع للعلم التجريبى . . وما دام الأمر كذلك . . فهو فرع من العلم ، هو فى مجال الفكر الإنسانى فى البحث والدراسة . .

إلا أن أى عالم من العلماء إذا توصل إلى شىء من العلم فى موضوع خلق الأجنة ـ أو فى أى موضوع آخر ـ لن يكون علمه صحيحا إلا إذا وافق ماجاء بالقرآن والحديث النبوى ، أما إذا خالفهما فلا يكون صحيحا . . ذلك أنهما وحى الله تعالى الذى خلق الإنسان . . وهو أعلم بخلقه . . وكم من النظريات العلمية آمن بها العلماء قرونا طويلة ، وخالفت ماجاء به الوحى الالهى فى القرآن والحديث النبوى . . وجاء الزمن بعد ذلك الذى اكتشف الإنسان فيه أن تلك النظريات لم تكن صحيحة . . وأن ما وافق القرآن والحديث النبوى كان هو الصحيح . . وكان هو الحق . .

ولم يكن علم مافى الأرحام معروفا للعلماء فى عصر نزول القرآن وما قبله من العصور معرفة صحيحة . . وظل علم الإنسان قاصراً عن إدراك العلم الصحيح ، حتى بعد نزول القرآن بعشرة قرون . . وكان قصارى ما يعلم الإنسان فى تلك العصور الطويلة ، إن الجنين يخلق فى رحم أمه من نقطة دم حيض . . يصلها ماء الرجل . . الذى اعتقدوا أنه يحمل سرّ الحياة . . فما إن يختلط ماء الرجل بنقطة الدم ، حتى تدب فيها الحياة ، وتصير نطفة فجنيناً حياً . .

وكانت هذه نظرية أرسطو الذى عاش فى القرن الثالث ق . م . . وظل العلماء يعتقدون فى صحة هذه النظرية عشرين قرنا من الزمان . فلم يكتشف العلماء بعض الحقائق العلمية عن الأجنة ـ على أساس علمى صحيح ـ إلا بعد القرن السابع عشر الميلادى . . ولماذا لم يتوصّل العلماء إلى اكتشاف بعض الحقائق العلمية الصحيحة عن الأجنة قبل ذلك التاريخ ؟ . . ذلك لأن معظم الحقائق العلمية عن الأجنة لا ترى بالعين المجردة ولا تعرف إلا بالميكروسكوب . . فلم يكن من سبيل إلى معرفتها إلا بعد القرن السابع عشر بعد اختراع الميكروسكوب .

لذلك كان للعلماء فى العصور السابقة على القرن السابع عشر العذر فى جهلهم بحقائق علم الأجنة . . لذلك كانت أفكارهم مجرد افتراضات علمية . . ولا تزيد على ذلك شيئا . . وفى وسط ذلك الجهل التام بحقائق علم ما فى الأرحام نزل القرآن

الكريم ، ونزل الوحى على رسول الله صلى الله عليه وسلم بالحديث النبوى . . وجاء فى القرآن والحديث النبوى ، كل الحقائق الكلية عن تكوّن الأجنـة فى الأرحـام ، والأسرار الكبـرى فى خلقها وتسـويتهـا . . وذكـرت بعض الآيـات القرآنية . . والأحاديث النبوية الكثير من التفاصيل أيضا فى خلق الأجنة . . لأن أكثر مايهم الإنسان خلق نفسه هو . . لذلك جاء فى الوحْى الالهى الكثير من التفاصيل العلمية فى هذا الموضوع . .

ولو كان القرآن من عند بشر . . ولو كان الحديث النبوى ليس وحيا من الله لرسوله كما يزعم أعداء الدين ، لجاء الحديث فى كل من القرآن والحديث النبوى فى موضوع خلق الأجنة ، بما كان الناس يعتقدون فى تلك العصور من أفكار وافتراضات وظنون ، أثبت العلم فى عصرنا هذا أنها كانت مخطئة تماما . . أما أن يرفض الوحى فى القرآن والسنة كل هذه الأخطاء والظنون . . ويذكر الحقائق العلمية الثابتة والتى لم يكتشف العلم بعضا منها إلا فى عصرنا هذا بعد نزول القرآن بخمسة عشر قرنا من الزمان وبعد اختراع الميكروسكوب بأكثر من ثلاثة قرون . . فإن ذلك يضع كل إنسان أمام حقيقة لاشك فيها ، وهى أن خالق الأجنة وخالق الإنسان ، هو منزل هذا القرآن على رسوله محمد صلى الله عليه وسلم . ولما كانت حقائق الأجنة لا تعرف إلا بالميكروسكوب . . فإن علم الأجنة لم يبتدىء كعلم صحيح إلا بعد القرن السابع عشر . . واكتشفت العلماء شيئا فشيئا بعض أسرار خلق الأجنة . . وفى عصرنا هذا اخترع العلماء الكثير من الآلات العلمية التى ساعدتهم على التعرف على المزيد من حقائق العلم ، فاستطاع العلماء مشاهدة الأجنة فى الأرحام بأعينهم بواسطة الأشعة والسونار ومنظار الرحم ، بل إن علم الوراثة فى عصرنا هذا تقدم تقدما عظيما واستطاع علماء الوراثة أن يعلموا على وجه اليقين ، إن كان الجنين ذكراً أم أنثى بعد فحص خلية من خلايا الجنين ، بل ويعرفون أكثر من ذلك من الحقائق ، فيشخصون أحد الأمراض الوراثية إذا كان الجنين مصابا بها . . ويعلمون إن كان سليما أم مريضا وهو لايزال فى رحم أمه . . ولقد زاد التقدم العلمى العلماء المؤمنين إيمانا فوق

إيمانهم . . وزاد غير المؤمنين غروراً حتى قال بعضهم إن الإنسان صار الآن يعلم ما فى الأرحام . . وهذا قول يدعو إلى السخرية أكثر مما يدعو إلى العجب . . إنهم يريدون أن يتحدوا قول الله تعالى ﴿ وَيَعْلَمُ مَا فِى الأَرْحَامِ ﴾ وكأنهم يقولون (ونحن أيضا نعلم ما فى الأرحام) إن من يقول ذلك جاهل وضال :

جاهل ، لأنه يجهل الحقائق العلمية فى علم الأجنة والتى تدل على إن علم الإنسان فيها بجانب علم الله تعالى لا يعد شيئا مذكوراً . . وأن العلماء ما أن يصلوا إلى أى حقيقة منها ويمعنوا فى البحث فيها ، حتى يجدوا أنفسهم فى النهاية مازالوا على شاطىء العلم فيها . .

وضال : لأنه ليس بعد الحق إلا الضلال .

فى سورة لقمان ٣٤ يقول الله عز وجل :

﴿ إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى الأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَاذَا تَكْسِبُ غَداً وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ .

قوله تعالى ﴿ وَيَعْلَمُ مَا فِى الأَرْحَامِ ﴾ كقوله تعالى ﴿ وَيَعْلَمُ مَا فِى السَّمَوَاتِ وَمَا فِى الأَرْضِ ﴾ ولا نجد قرينة فى قول الله عز وجل تدل على أن الله لم يُطلع أحداً من خلقه على بعض أسرار خلقه . . فعلم مافى الأرحام ليس كله فى حكم الغيب . . وقد أطلع الله تعالى خلقه على بعض العلم فيه . . فقول الله عز وجل (وَيَعْلَمُ مَا فِى الأَرْحَامِ) يشير إلى علم الله تعالى الذى هو علم شامل كامل ومحيط بكل شىء جملة وتفصيلا .

أما مجال علم الإنسان فيه فنجده فى قوله تعالى ﴿ ولا يحيطون بشىء من علمه إلا بما شاء ﴾ .

وفى قوله تعالى ﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِى الآفَاقِ وَفِى أَنفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ ﴾ وفى قوله تعالى ﴿ وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَتَعْرِفُونَهَا ﴾ .



أسرار خلق النطفة

لم يكن علم ما فى الأرحام . . وسر خلق النطفة معروفا فى عصر نزول القرآن وقبله بقرون وبعده بقرون كذلك . . ولم يكتشف العلماء شيئا من حقائق العلم فى علم الأجنة إلا ابتداء من القرن الماضى وبداية القرن الحالى . . ومازال العلم يكتشف الجديد من الحقائق العلمية . .

وكانت أفكار فلاسفة الإغريق عن خلق الأجنة مخطئة تماما . . ومن تلك الأفكار أن منى الرجل يأتى من الدم ، وما أن يصل إلى نقطة دم من الحيض فى الرحم حتى تدب فيها الحياة ويخلق جنين حى . . واعتقدوا أن الدم فى جسم الإنسان ساكن لا يتحرك فى الأوعية الدموية إلى أن ظهر الطبيب العربى ابن النفيس فى القرن الثانى عشر الميلادى ، واكتشف الدورة الدموية الصغرى بين القلب والرئتين . . وجاء بعده العالم البريطانى وليم هارفى فى القرن السابع عشر ، واكتشف الدورة الدموية الكبرى . ونشر كتابه عن الدورة الدموية سنة ١٦٢٨ ، وكان مكونا من اثنتين وسبعين صفحة وفيه شرح الدورة الدموية وكيف أن القلب يضخ الدم إلى الشرايين إلى أنحاء الجسم ويعود الدم إلى القلب عن طريق الأوردة . .

ونسب علماء الغرب اكتشاف الدورة الدموية إلى وليم هارفى وتناسوا العلم العربى ابن النفيس الذى اكتشف الدورة الصغرى قبل هارفى بخمسة قرون . . وبعد اكتشاف الدورة الدموية الكبرى فى القرن السابع عشر ، تأكد العلماء أن منى الرجل لايأتى من الدم مباشرة كما اعتقد علماء الإغريق من قبل . . ولكنه يأتى من الغدد التناسلية فى جسم الرجل . . كذلك اكتشف العلماء أن الجنين لا ينشأ من دم الحيض ، ولكنه ينشأ من تلقيح بويضة من الأم ، بحيوان منوى من الأب ، وبذلك تنشأ النطفة التى سرعان ماتنمو وتكبر فى رحم الأم .

ولاحظ العلماء أن تكون الجنين فى كل نوع من الكائنات الحية ، من حيوان وطير وحشرة ونبات ، كلها بنفس النظام المحكم . . مما يدل على وحدة نظام الخلق فى هذا الوجود الذى يقوم دليلا واضحا على وحدانية الخالق تعالى . .

والحيوانات المنوية ليست حيوانات . . ولكنها أنصاف خلايا من الناحية الوراثية ، فهى خلايا بشرية من نوع خاص . . صمم الخالق تعالى خلقها بحيث تتحرك من مكان إلى مكان بواسطة ذيل طويل نسبيا . . فهى خلية تشبه أحد الحيوانات ، ومن هنا أطلقوا عليها قديما اسم « الحيوان المنوى » . . وله رأس مستطيل كمثرى الشكل ، وعنق قصير وذيل طويل . . ويتحرك بواسطة الرأس والذيل معاً . . حركة نشطة جدا . . والحيوان المنوى دقيق الحجم جدا ، فرأسه لا يزيد على ٤ من المليون من المللى متر وذيله لا يزيد على ٤٠ من المليون من المللى متر . . لذلك كان من المستحيل اكتشافه ورؤيته قبل اختراع الميكروسكوب ، وتطور اختراعة إلى الميكروسكوبات القوية فى مطلع هذا القرن . . من هنا كان جهل العلماء القدامى واعتقادهم المخطىء ، أن منى الرجل سائل لا أثر فيه لحياة . . ولكن فيه سراً غامضاً يمنح الحياة . .

أما فى الأنثى ، فإن البويضات تتكون فى المبيض من حويصلات خاصة . . كل حويصلة تنمو وبداخلها بويضة . . وما أن تنضج حتى تصل إلى سطح المبيض . . وتنفجر الحويصلة وتخرج منها البويضة فى مواعيد محددة إلى التجويف البريتونى ، فتستقبلها أحد قناتى الرحم . . وكان أول من اكتشف البويضة عالم يدعى ريجنير دى جراف ، وذلك فى القرن السابع عشر . . وأطلق اسمه على حويصلات المبيض : Graffian Follicles . . والبويضة كروية الشكل لا يزيد قطرها على ١/١٠٠ من المللى متر فهى أكبر كثيراً جدا من الحيوان المنوى . . وتحتوى على نصف عدد الصبغيات أو الكروموسومات وذلك بسبب الانقسام الاختزالى فى الخلايا التناسلية ، والتى من شأنها أن جعل كلا من الحيوان المنوى فى الرجل والبوضية فى المرأة أنصاف خلايا من الناحية الوراثية ، ويسميها العلماء « الأمشاج » . . وباتحاد

الأمشاج تتكون النطفة الأولى . . ولم يكن ذلك معروفا قط قبل القرن الثامن عشر . . ولكن القرآن الكريم ذكر هذه الحقيقة التى لا تعرف إلا بالميكروسكوب ، قبل اختراع الميكروسكوب بأكثر من أحد عشر قرنا من الزمان ، وذلك فى سورة الإنسان « ٢ » فى قول الله عز وجل :

﴿ إِنَّا خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعاً بَصِيراً ﴾ نزلت هذه الآية الكريمة تتحدى علم الإنسان . . فى زمن كان الاعتقاد فيه أن الجنين يخلق من نقطة دم حيض . . إنها آية كريمة تعلن للإنسان بحقيقة خلقه ، قبل أن يعلم الإنسان شيئا صحيحا عنها ، بأكثر من ألف ومائتى عام . . وفى أول سورة الإنسان يقص القرآن الكريم علينا قصة الإنسان كلها فى آيات ثلاث وذلك فى قول الله عز وجل :

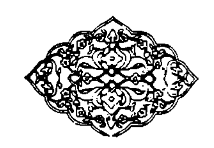
﴿ هَلْ أَتَى عَلَى الإِنسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْئاً مَّذْكُوراً ﴾ هذه مرحلة تتبعها مرحلة أخرى فى قوله تعالى : ﴿ إِنَّا خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعاً بَصِيراً ﴾ ثم تأتى المرحلة الثالثة فى قوله تعالى : ﴿ إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِراً وَإِمَّا كَفُوراً ﴾ ﴿ هَلْ أَتَى عَلَى الإِنسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْئاً مَّذْكُوراً ﴾ : أسلوب تقريرى فى صورة استفهام وقوله تعالى : ﴿ هَلْ أَتَى عَلَى الإِنسَانِ ﴾ للتقرير والتقريب ، والمعنى قد أتى على الإنسان قبل زمن قريب ، حين من الدهر لم يكن شيئاً مذكورا ، فقد خلق جسم الإنسان من تراب هذه الأرض . .

ولكن أين كان هذا التراب قبل خلق الأرض . . إنه كان فى السماء الدخانية الأولى فى الفضاء الكونى . . إن الآية الكريمة تحكى تاريخ الإنسان قبل خلقه جنينا فى بطن أمه . . وتتحدث الآية التالية عن حقيقة خلقه فى هذه الدنيا من نطفة أمشاج . . وجعل له من الحواس ما يستطيع بها أن يفرق بين الصحيح والخطأ . . وتقدير القول إنا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج فجعلناه سمعياً بصيراً لنبتليه . . وتتحدث الآية الثالثة عن مصير الإنسان فى حياته الدنيا فى قول الله عز وجل : ﴿ إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِراً وَإِمَّا كَفُوراً ﴾ وعن جابر رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال :

« كل مولود يولد على الفطرة حتى يعرب عنه لسانه إما شاكراً وإما كفوراً » . . ومرحلة وجود الإنسان قبل حياته الدنيا من الغيبيات ، التى لا نعرف عنها إلا ما أخبرنا الله تعالى عنها فى القرآن والحديث النبوى ، كما فى خلق آدم . . وما حدث فى يوم الميثاق . .

أما مرحلة خلق الإنسان جنينا فى بطن أمه ، فهى مرحلة نراها ونعيشها وندرسها وتخضع للعلم التجريبى . . وذكر الله تعالى لنا عنها كثيرا من الحقائق والتفاصيل فى القرآن الكريم والحديث النبوى الشريف . .

ويبتدى خلق الإنسان فى بطن أمه نطفة لايزيد قطرها على ٠/١ مللى متر ، وهى خاية بشرية كاملة لاترى إلا بالميكروسكوب . . وهكذا بدأ خلق الإنسان فى رحم أمه كائنا مجهرى الحجم ، ولكنه فى صنع متقن ، وخلق فى أحسن تقويم .





أطوار خلق الأجنة

يتجلى الإعجاز فى الخلق ، فى الأمشاج الذكرية . . وهى خلايا لها رأس صغير ، وعنق قصير ، وذيل طويل . . والعجيب أنها جميعاً فى مجموعات كبيرة ، تعد بمئات الملايين تتجه فى اتجاه واحد . . وإلى هدف واحد . . والهدف بعيد عنها . . وهو البويضة . . وهى تتحرك بأقصى سرعتها ، ولن تقطع الرحلة إلى أنبوبتى الرحم وهى نحو عشرة سنتيمترات ، إلا بعد ساعة ونصف الساعة . . ولا نعلم لماذا تتحرك الخلايا الذكرية فى ذلك الاتجاه ، ولا لماذا لا تضل طريقها أبداً . . ولا تخطىء هدفها مطلقاً ؟

وما أن يصل ذلك الجيش من الحيوانات المنوية إلى البويضة فى احدى قناتى الرحم ، حتى يتجمع حولها من كل اتجاه . . حينئذ تدور البويضة حول نفسها ، أو أن الحيوانات المنوية تديرها ، لا ندرى . . وينجح حيوان منوى واحد فى إقتحام البويضة . . وما أن يحدث ذلك ويتحد بالبويضة حتى تتكون البويضة الملقحة . . ويحدث تغير هائل بها . . ونشاط سريع . . وانقسام بها إلى خليتين . . والخليتان إلى أربع . . والأربع إلى ثمان وهكذا . وتكبر النطفة شيئا فشيئاً ، وتصير فى حاجة إلى غذاء من دم الأم . . ولا سبيل إلى ذلك إلا باختراق جدار الرحم والتعلق به حيث تتصل بدم الأم اتصالا غير مباشر . . ولا يختلط دم الأم بدم النطفة . . ولكن المواد الغذائية فى دم الأم تصل إلى دم النطفة وتغذيها . . وما أن تتعلق النطفة بجدار الرحم حتى تصير علقة .

ونقرأ عن هذه الحقائق العلمية فى المراحل الأولى فى خلق الأجنة فى سورة العلق فى قول الله عزوجل : ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِى خَلَقَ . خَلَقَ الإنسَانَ مِنْ

عَلَقٍ . اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ.الَّذِى عَلَّمَ بِالْقَلَمِ . عَلَّمَ الإنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ .

وسورة العلق أول سورة نزلت من القرآن الكريم على رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم .. ابتدأت بالأمر بالقراءة والتعلم .. فأول كلمة أنزلت من القرآن كلمة (اقرأ) .. وجاءت كلمة (اقرأ) مرتين ﴿ اقْرَأْ باسْمِ رَبِّكَ الَّذِى خَلَقَ ﴾ ﴿ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ ﴾ .. وذكر الخلق مرتين أيضاً .. وذكر العلم ثلاث مرات .. واستهلت السورة بالأمر بالقراءة (اقرأ) واختتمت بالعلم ﴿ عَلَّمَ الإنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ .. وبين القراءة والعلم كان الخلق كله (الذى خلق) دلالة على أن الخلق كله ، إنما بنى على العلم فالاستهلال كان بجملة الخلق ﴿ اقْرَأْ باسْمِ رَبِّكَ الَّذِى خَلَقَ ﴾ . وبعد الجملة ذكرت المفردات ﴿ خَلَقَ الإنسَانَ مِنْ عَلَقٍ ﴾ .. وذكر خلق الإنسان كأحد مفردات الخلق .. لأن الإنسان هو المخاطب .. وأول ما يهم المخاطب خلق نفسه هو ..

والعلق : جمع علقة .. والعلق فى اللغة ، دود فى الماء يمتص الدم .. ومفرده علقة .. وقيل فى الأثر : خير الدواء العلق ..

والعلق كل شىء تعلق بشىء آخر .. وقد تعود كلمة علق على الحيوان المنوى الذى يشبه دود العلق حركة ومنظراً .. فجاء تشبيه الحيوان المنوى بالعلق .. وحذفت أداة التشبيه إشارة إلى أن المشبه عين المشبه به ، وقد يكون « علق » جمع علقة وهى النطفة التى تعلقت بالرحم ، وهى أولى مراحل خلق الجنين فى الرحم .. لأن النطفة تموت إذا لم تتعلق بالرحم .. وما يبتدىء التخلق فى النطفة إلا بعد أن تصير علقة ..

وجاءت كلمة (علقة) فى خمس آيات .. وفى كل آية ارتبطت بمعنى جديد وبقضية جديدة .. نزلت بترتيب النزول فى سور : القيامة ثم غافر ثم المؤمنون مرتين ثم فى سورة الحج .

ذكرت أولاً فى سورة القيامة ٣٦ ـ ٣٨ فى سياق الحديث عن تسوية خلق الإنسان

فى قول الله عزوجل : ﴿ أيحسَبُ الإنسَانُ أن يُتْرَكَ سُدًى • أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَنِيٍّ يُمْنَى • ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّى ﴾

ثم ذكرت فى سورة غافر ٦٧ فى الحديث عن تاريخ الإنسان كله وأطوار خلقه جميعاً فى قول الله عزوجل ﴿ هُوَ الَّذِى خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا شُيوخًا وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّى مِن قَبْلُ وَلِتَبْلُغُوا أَجَلا مُّسمّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ .

ثم ذكرت فى سياق الحديث عن أطوار خلق جنين الإنسان فى رحم أمه فى سورة المؤمنون ١٢ ـ ١٤ فى قول الله عزوجل : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإنسَانَ مِن سُلالَةٍ مِّن طِينٍ • ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ • ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنا العَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخرَ فَتبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ﴾ .

ثم ذكرت أخيراً فى سورة الحج ٥ فى الحديث عن تاريخ الإنسان فى الدنيا فى قول الله تعالى : ﴿ يَاأَيُّهاَ النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطفَةٍ ثُمَّ مِن عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِى الأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّى وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِن بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا ﴾ ونلاحظ فى كتب التفاسير ، أن معظم المفسرين القدامى فسروا كلمة « علقة » أنها نقطة دم جامد . . وذلك تأثراً بما كان عليه اعتقاد الناس قديما أن الجنين خلق من نقطة دم . . ولقد استمر هذا الاعتقاد حتى نهاية القرن السابع عشر وأوائل القرن الثامن عشر .

وجاء ذكر علقة فى كثير من الأحاديث النبوية ، فى سياق الحديث عن أطوار خلق جنين الإنسان فى رحم أمه ، كما فى الصحيح عن أنس بن مالك رضى الله عنه ، أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال : (إن الله قد وكّل بالرحم ملكا فيقول أى رب نطفة ، أى رب علقة ، أى رب مضغة ، فإذا أراد الله أن يقضى خلقا قال الملك أى

رب ذكر أو أنثى ، شقى أو سعيد ، فما الرزق ، فما الأجل فيكتب كذلك فى بطن أمه) .

وفى الصحيح أيضاً عن عبدالله بن مسعود رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (إن أحدكم يجمع خلقه فى بطن أمه أربعين يوما ثم يكون فى ذلك علقة مثل ذلك ثم يكون مضغة مثل ذلك ثم يرسل الملك فينفخ فيه الروح . . إلخ الحديث الشريف) . . والجنين مخلوق رقيق جداً . . وخاصة فى مراحل خلقه الأولى . . فكيف حفظه خالقه تعالى وحماه من أى إصابة خارجية ؟ . . لقد حفظه الله تعالى فى مكان أمين وقرار مكين . . بحيث لا تصل إليه أى إصابة من الخارج . . فهو فى أكثر أماكن الجسم حماية له . . وأقلها حركة . . وفى مكان محاط بعظام قوية من كل اتجاه . . هى عظام الحوض . . وعظام الحوض فى مركز الجسم . والرحم فى مركز الحوض . والجنين فى مركز الرحم . . وبهذا كان الجنين فى مكان أمين ، ليس أكثر منه أمانا . . وقرار مكين ليس أمكن منه قراراً . .

ولقد بيّن الله تعالى هذه الحقيقة العلمية فى سورة المؤمنون فى قوله عزوجل :
﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإنسَانَ مِن سُلاَلَةٍ مِّن طِينٍ • ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴾ .
وذكرت هذه الحقيقة أيضاً فى سورة المرسلات ٢٠ - ٢٣ يقول الله تبارك وتعالى :
﴿ أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَاءٍ مَهِينٍ • فَجَعَلْنَاهُ فِى قَرارٍ مَّكِينٍ • إلىَ قَدَرٍ مَّعْلُومٍ • فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ الْقَادِرُونَ ﴾ .

وذكرت كلمة (أجنة) فى القرآن الكريم فى آية واحدة ، وذلك فى سورة النجم ٣٢ فى قول الله تعالى : ﴿ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِى بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ فَلاَ تُزَكُّوا أَنفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى ﴾

لقد خلق الله تعالى جنين الإنسان فى بطن أمه طورا من بعد طور . . نطفة ، ثم علقة ثم مضغة ، ثم أطواراً أخرى ، يعقب بعضها بعضا . . وخلق النطفة يختلف عن خلق باقى أطوار خلق الجنين . . فخلق النطفة ينتج من اتحاد أمشاج الذكر بأمشاج الأنثى لذلك وصفها الله تعالى بالقول ﴿ إِنَّا خَلَقْنَا الإنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ ﴾

وأمشاج الذكر وأمشاج الأنثى كانتا من قبل منفصلتين إحداهما عن الأخرى : البويضة في جسم . . والحيوان المنوى فى جسم آخر . . ثم تلاقتا واتحدتا ، وكونتا البويضة الملقحة أو النطفة . . أما خلق العلقة وخلق المضغة . . فهى اطوار من الخلق يعقب بعضها بعضا فى نفس الجنين . . ولا يختلف أحدها عن الآخر الا فى درجة التسوية فى الخلق . . إذن فهناك فرق واضح بين خلق النطفة من أمشاج متفرقة ثم تجمعت . . وبين خلق كل من العلقة والمضغة بعد ذلك . . ونجد ذلك فى التعبير القرآنى فى بالغ الدقة العلمية فى قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ ۝ ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ﴾ . . إلخ الآية الكريمة . والجعل أشمل من الخلق ، فالجعل يعنى الجمع والخلق والأمر والحكم . . ولم تقل الآية ثُمَّ خَلَقْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ ، ولكن الله تعالى قال : ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴾ لأن الله خلق النطفة من مصادر كانت متفرقة وجمعها وخلطها وأخرج منها النطفة . . وهذا النمط فى خلق النطفة ، لم يكن فى خلق العلقة والمضغة . . لذلك وصف طور خلق النطفة بالجعل . . ووصف طور خلق كل من العلقة والمضغة بالخلق . . وبين مرحلة خلق الإنسان من سلالة من طين فى خلق آدم . . وبين مرحلة جعله نطفة فى خلق ذرية آدم . . خطوات كثيرة من الخلق . . ومراحل عديدة . . وأطوار مختلفة . . وعصور وأزمان طويلة . .

لذلك جاء الحرف (ثم) الذى يفيد الترتيب مع التراخى فى الزمن ، بين الخلق من سلالة من طين وبين جعل النطفة . . أما مراحل خلق العلقة والمضغة واللحم والعظام ، فهذه مراحل يتبع بعضها بعضا ، ويعقب بعضها بعضاً ، فى أيام وأسابيع ، لذلك سبق ذكر تلك المراحل بالحرف (فاء) الذى يفيد اشتراك المعطوف والمعطوف عليه فى وصف واحد ، مع التعقيب الزمنى . . أما تسوية الجنين خلقا آخر ، فلا تأتى بعد أيام أو أسابيع ، وإنما بعد أربعة أشهر كاملة ، لذلك سُبق ذكر هذا الطور من خلق الجنين بالحرف (ثم) وليس بالحرف (فاء) . . نجد كل ذلك فى آية سورة المؤمنون ١٢ ـ ١٤ فى قول الله عزوجل :

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ ۝ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ ۝ ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ﴾ .

ولماذا سبق الحرف « ثم » خلق العلقة من النطفة ، ولا يستغرق ذلك إلا أياما قليلة ؟ ولم يقل فخلقنا النطفة علقة ؟ . . صحيح أنه هناك تعقيب زمنى بين خلق النطفة والعلقة . . ولكن ليس هناك تتابعاً فى نفس المكان . . ونفس الخلق . . فالنطفة تكون فى إحدى أنابيب الرحم من خلية واحدة ، ثم تنقسم حتى ست عشرة خلية . . وقد لا تتعلق بجدار الرحم فتهوى مع السوائل الرحمية إلى خارج الجسم وتموت . . وقد يقدر الله تعالى لها أن تتعلق بجدار الرحم فتصير علقة . . وبين تكوّن النطفة ، وتكون العلقة مسافة طويلة . . وبعد فى المكان . . فالنطفة كما قلنا تتكون فى إحدى أنابيب الرحم . . وتدفعها حركة الأهداب إلى اتجاه الرحم . . وبعد أيام قليلة تصل ألى تجويف الرحم . . وقد تسقط إذا قدر الله عليها السقوط . . وقد يوحى الله تعالى إليها أن تخترق جدار الرحم ، وتتعلق به ، وتصير علقة ، إذا أراد الله تعالى لها الحياة . . وبسبب كل هذه الاختلافات فى المكان والوظيفة والحركة . . لم يسبق حرف (الفاء) طور خلق العلقة من المضغة وإنما ذكر الحرف (ثم) فى قوله تعالى :

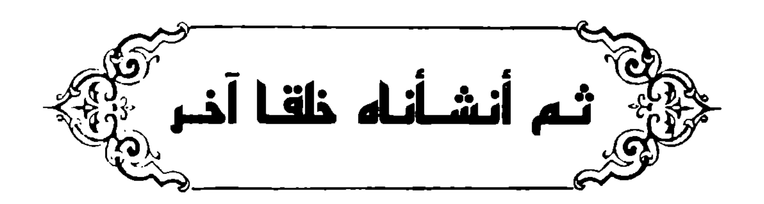
﴿ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ ۝ ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ﴾ (إلخ الآية الكريمة) .

ويلاحظ قارىء الآية الكريمة قمة الدقة العلمية فى التعبير القرآنى عن حقائق أطوار خلق جنين الإنسان فى رحم أمه . . ونزلت آية سورة المؤمنون فى مكة المكرمة ، وهى من أواخر السور التى نزلت فى مكة ، فقد نزل فى مكة قبلها ثلاث وسبعون سورة ، ولم ينزل بعدها إلا اثنتا عشرة سورة فقط . . ونزلت فى عصر كان العلماء والناس جميعا ، يعتقدون بصحة نظريات الإغريق التى كانت تقول أن

الجنين يخلق فى دم حيض . . وهى آية من آيات التحدى فى القرآن الكريم . . ولم يستطع أعداء الدين أن يكذبوا ما جاء بالآية من حق . . فلم يكن لديهم أى دليل على ما يزعمون . . ولم يكن لديهم أى برهان علمى ، يتعارض مع ما جاء بالقرآن الكريم من حق . . ولم يدرك العلماء المغزى العلمى فى الآية الكريمة إلا بعد أزمان طويلة . . إلى أن جاء عصر العلم بعد منتصف القرن التاسع عشر . . ووجدوا أن الناس فى عصر نزول القرآن كانوا على جهل كبير . . وأن ما جاء به القرآن هو الحق والصدق واليقين .

ولو كان القرآن الكريم من تأليف إنسان . . مهما بلغ ذلك الإنسان من العلم والفهم والذكاء ، لتحدث فى سياق الحديث عن خلق الأجنة بما كان العلماء يعتقدون فى عصره ، أما أن يرفض القرآن كل النظريات المخطئة التى كانت سائدة بين الناس جميعاً ، ويقرر حقائق علمية لا تعرف ولا ترى إلا بالميكروسكوب ، ويذكرها تفصيلا وتحديا قبل أن يعرف الناس الميكروسكوب العلمى بأكثر من ألف عام . . وأما أن يقرر حقائق علمية ويؤكدها فى آيات كثيرة ، ويذكر تفاصيلها ، فإن ذلك دليل لا يقبل أى جدل ، على أن هذا القرآن لا يمكن أبداً أن يكون من عند بشر . . بل إن ذلك يقدم دليلا واضحا ، وبرهانا ساطعا ، على أن منزل هذا القرآن على عبده ورسوله ، هو خالق هذا الإنسان .





ثم أنشأناه خلقا آخر

يبدأ خلق النطفة باتحاد أمشاج الذكر والأنثى مصداق قول الله - عز وجل - فى سورة الإنسان : ﴿ إِنَّا خَلَقْنَا الإنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ ﴾ ، وتنقسم خلايا النطفة أزواجاً أزواجا ، وتُدفع من قناة فالوب إلى تجويف الرحم . . وبعد ذلك تتعلق وتخترق جدار الرحم وتصير بذلك علقة ، تتغذى من الغذاء الموجود فى دم الأم . . وبعد طور العلقة يأتى طور آخر هو طور المضغة . .

بعد عشرة أيام يكون الجنين مكوناً من ثلاث طبقات من الخلايا . . كل طبقة تكوّن فى المستقبل أعضاء خاصة فى جسم الإنسان . . ويصير طول الجنين مللى متر واحد فى اليوم الثانى عشر . . وفى الأسبوع الثالث يتكون القلب الذى ينبض فى أول الأمر بغير انتظام ، ثم تنتظم ضرباته بعد الأسبوع السادس ، ويكون طول الجنين ٢/١'١ سنتيمتر ، وفى الأسبوع السابع يصل طوله إلى سنتيمترين ، وتتكون فيه الأعضاء المختلفة ، ولسنا فى مجال الحديث عن تفاصيل خلق الجنين من الناحية التشريحية . . لأن ذلك يستغرق كتاباً آخر . . وإنما نقتصر فى حديثنا عن أطوار خلق الجنين بصفة عامة ، ولا ندخل فى تفصيلات تُخرجنا عن موضوع البحث فى هذا الكتاب . .

فى الأربعين يوماً الأولى ، يكون الجنين فى مرحلة العلقة . . وفى الأربعين يوماً الثانية يدخل الجنين مرحلة أخرى متقدمة هى مرحلة المضغة . . وفى هذه المرحلة لا توجد فى الجنين خلايا عظمية أو خلايا عضلية . . وقديماً فسر المفسرون كلمة (مضغة) أنها تشبه اللحم الممضوغ . . وهذا صحيح شكلاً ، ولكنه ليس صحيحاً

موضوعاً . . فليس فى المضغة خلية لحم واحدة . . والمقصود باللحم هى العضلات . . وتظهر الخلايا العضلية بعد الأربعين يوماً الثانية . . وتظهر أول ما تظهر بجوار فقرات العمود الفقرى فى الجسم وتظهر العظام أولاً ، ثم تظهر العضلات بعد ذلك . . لأن العضلات لابد أن تتصل بالعظام . . فلا معنى لوجودها إلا بوجود العظام . . لذلك يخلق الله تعالى العظام أولاً ، ثم يخلق بعد ذلك العضلات . . تظهر عضلات الذراعين بجوار فقرات العنق . . وبعد ذلك تهاجر تلك العضلات إلى عظام العضد والذراع والكف والأصابع ، وتكسو العظام من كل اتجاه . . وتسحب معها الأوعية الدموية والأعصاب الخاصة بها . . لذلك نجد أن الأوعية الدموية والأعصاب التى تغذى عضلات اليد مثلاً فى الإنسان البالغ ، تأتى من منطقة الرقبة . . وعضلات الساقين تتكون فى الجنين بجوار فقرات الظهر ، ثم تهاجر إلى عظام الساقين بعد ذلك . . وتكسوها من كل اتجاه . . كل عضلة فى موضعها الذى خلقت من أجله . . وتستقر حول العظام فى الأمكنة المخصصة لها تماماً . . وتسحب معها الأوعية الدموية ، والأعصاب التى تغذيها من منطقة تكونها فى أسفل الظهر ، لذلك نجد فى الإنسان البالغ أن عضلات قدمه ، تتغذى من أوعية دموية تتفرع من أوعية دموية عند أسفل الظهر . . وكذلك أعصاب القدم ، تأتى من بين الفقرات القطنية أسفل الظهر . .

إذن فالعظام تكونت أولاً بالفقرات الظهرية ، ثم تكونت العضلات على جانبيها ، ثم ظهرت عظام الأطراف ، فهاجرت العضلات إليها وكستها من كل اتجاه . . ولا يمكن أن يُخلق اللحم قبل العظم فى الجنين . . لأن وظيفة العضلة الحركية ، هى أن ترتبط بعظمتين بينهما مفصل ، إذا انقبضت أو انبسطت تحرك ذلك المفصل ، فإذا لم تكن العظام موجودة فلا معنى لوجود العضلات . . وقديماً كان العلماء يعتقدون أن الجنين خُلق أولاً قطعة من اللحم ثم ظهر العظم بعد ذلك ، وكان هذا الاعتقاد غير صحيح ولكن الصحيح ما ذكره القرآن الكريم فى قول الله عز وجل ﴿ فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَاماً فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْماً ﴾ .

إنها حقيقة لم يكتشفها علماء الأجنة إلا فى القرن الحالى فقط .

وذكر الله تعالى حقائق خلق الأجنة فى سورة المؤمنون ١٢ ـ ١٤ فى قوله ـ عز وجل ـ : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن سُلاَلَةٍ مِّن طِينٍ . ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ . ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَاماً فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْماً ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقاً آخَرَ فَتَبَارَكَ الله أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ﴾ .

فبعد طور خلق العظام واللحم فى الجنين قال الله تعالى : ﴿ ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ ﴾ فما هو المغزى العلمى فى قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ ﴾ .

إن الجنين ينشأ بعد ذلك خلقا آخر شكلاً وموضوعاً . .

فكيف ينشأ الجنين خلقا آخر من ناحية الشكل والمظهر الخارجى ؟

إن الأجنة فى الفقريات جميعاً ـ بعد المرحلة الأولى فى خلق العظام واللحم ، تكون متشابهة فى المظهر الخارجى إلى حد بعيد . . ولا يستطيع أىُّ عالم أن يفرق فى هذه المرحلة من خلق الجنين ، بين جنين سمكة ، أو جنين أرنب ، أو جنين دجاجة ، أو جنين إنسان ، فكلها أجنة تشبه بعضها بعضا فى المظهر الخارجى . . وكان ڤون بير عالما ألمانيا يبحث فى علم الأجنة وتوصّل إلى قانون يحمل اسمه (قانون ڤون بير) به عدة حقائق :

أولاً : إن الأطوار المبكرة فى أجنة الحيوانات يشبه بعضها بعضا .

ثانياً : بعد أن يكبر الجنين ينشأ خلقا آخر خاصاً بنوعه ويبتعد أكثر وأكثر عن شكل بقية الحيوانات . .

وقال ڤون بير فى وصفه لهذه الظاهرة العلمية فى تطور خلق الأجنة : إنه أثناء تكون جنين الدجاجة مثلاً ، يوجد طور فى الخلق يستطيع العالم ـ بالمظهر الخارجى للجنين ـ أن يجزم أنه جنين لأحد الفقريات . . لوجود العظام والعضلات فيه . . ولكنه لا يستطيع أن يجزم بتحديد نوع المخلوق . .

ولقد حصل ڤون بير على عدد من الأجنة فى طور خلقها بعد تكون العظام والعضلات مباشرة ، لعدد من الفقريات ، وحفظ تلك الأجنة فى الكحول . . ثم

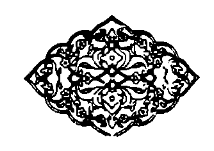
عرضها على العلماء فلم يتعرف واحد منهم على نوع أى جنين منها . . فكلها متشابهة فى الشكل الخارجى ، وبعد ذلك الطور من الخلق يدخل كل جنين منها فى طور آخر ، ويكون فى شكل مختلف مميز لنوع خلقه . . وكل ذلك نجده فى قوله تعالى :

﴿ فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَاماً فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْماً ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقاً آخَرَ فَتَبَارَكَ اللهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ﴾ .

ولكن ليس معنى تشابه الأجنة فى الشكل الخارجى ، أنها تتشابه أيضاً فى عواملها الوراثية . . فإن لكل نوع من أنواع الخلق ، عوامل وراثية خاصة به ، لا يشترك غيره معه فيها . . فخلية جنين الدجاجة لا تشترك فى عواملها الوراثية مع خلية جنين سمكة ، وجنين حصان أو جنين إنسان . فإذا كان الشكل الخارجى فى الأجنة يتماثل ، فإن الشفرة الوراثية فيها تختلف .

وكما ينشأ الجنين خلقا آخر شكلاً ، فإنه ينشأ خلقا آخر موضوعاً أيضاً : فتغير الشكل الخارجى للجنين فى الإنسان ، يواكبه تطور آخر فى الخلق ، وهو اكتمال صفته البشرية بنفخ الروح فيه . . وهذه حقيقة غيبية لا تخضع لعلم تجريبى . . ولقد ذكرها لنا الحديث النبوى الشريف الذى رواه الصحيحان أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال :

[يجمع أحدكم فى بطن أمه أربعين يوماً نطفة ثم يكون علقة مثل ذلك ، ثم يكون مضغة مثل ذلك ، ثم يرسل إليه الملك فينفخ فيه الروح ويؤمر بكتابة أربع : رزقه ، وأجله ، وعمله ، وشقى أو سعيد] .





خلق الأجنة من ذكر وأنثى

قبل تقدم علم الوراثة فى هذا القرن ، وخاصة فى النصف الثانى منه . .
لم يكن سر خلق الذكر والأنثى معروفاً على وجه اليقين لدى العلماء . .
وسنة ١٩٥٣ اكتشف علماء الوراثة أن خلية الإنسان تحتوى على ستة وأربعين كروموسوما . .

أربعة وأربعون منها ذاتية واثنان منها جنسيان . . واكتشفوا بعد ذلك أنه إذا انقسمت الخلايا فى الجسم . . فإن الخلايا الجديدة تحمل نفس عدد الكروموسومات ، ونفس الشفرة الوراثية . . أما فى الغدد التناسلية فإن انقسام الخلايا انقسام اختزالى ، بمعنى أن الخلية تنقسم إلى نصفين . . كل نصف منها يعتبر من الناحية الوراثية نصف خلية ، لأنه يحمل نصف عدد الكروموسومات أى ثلاثة وعشرون كروموسوما فقط . .

فالحيوان المنوى يحمل ثلاثة وعشرين كروموسوما ، واحد منها كروموسوم جنسى ، وكذلك البويضة فى الأنثى . . فإذا اتحد الحيوان المنوى بالبويضة ، صار عدد الكروموسومات فيها ستة وأربعين ، اثنان منها جنسيان .

والكروموسومات الجنسية فى المرأة على شكل XX

والكروموسومات الجنسية فى الرجل على شكل XY

فإذا انقسمت خلايا الأنثى فى المبيض انقساماً اختزالياً ، نتج عن ذلك بويضتان ، كل منها يحمل كروموسوماً جنسياً على شكل X ، وإذا انقسمت خلايا الذكر فى الخصية انقساماً اختزالياً ، نتج عن ذلك حيوانان منويان ، يحمل أحدهما كرموسوما جنسياً على شكل X، ويحمل الآخر كروموسوما جنسياً على شكل Y، ومن هذا نفهم أن كل بويضة فى المبيض تحمل الكروموسوم الجنسى X . . أما

الحيوانات المنوية ، فبعضها يحمل الكروموسوم الجنسى X الذى يحمل صفات الأنوثة . . وبعضها الآخر ، يحمل الكروموسوم الجنسى Y الذى يحمل صفات الذكورة . . وبمعنى آخر ، بعض الحيوانات المنوية إناث . . وبعضها الآخر ذكور . ففى منى أى رجل حيوانات منوية مذكرة ، وحيوانات منوية مؤنثة . . فإذا اتحد حيوان منوى مؤنث يحمل الكروموسوم X مع بويضة وهى تحمل دائماً الكروموسوم X، احتوت الخلية الملقحة على الكروموسوم XX ، وصار الجنين بعد ذلك أنثى .

وإذا اتحد حيوان منوى مذكر يحمل الكروموسوم Y مع البويضة صار الجنين XY أى ذكر ، من هذا يتضح أن نوع الحيوان المنوى فى منى الرجل ، هو الذى يحدد جنس الجنين ذكراً كان أم أنثى ، ولا دخل لبويضة المرأة فى تحديد جنس الجنين .

ولم يكتشف علماء الوراثة هذه الحقيقة إلا فى النصف الثانى من هذا القرن . .

ولم يكن ذلك معروفاً قبل ذلك أبدا . . ولكن الوحى الإلهى فى القرآن والحديث النبوى ، ذكر هذه الحقائق فى عصر كانت علوم البشر فى ظلمات الجهل والتأخر . . وكان كل مايعلمونه عن خلق الجنين مجرد ظنون كاذبة . . وجاء ذكر الحقيقة فى سورة القيامة ٣٦ ـ ٣٩ : فى قول الله عز وجل : ﴿ أَيَحْسَبُ الإِنسَانُ أَن يُتْرَكَ سُدًى . أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِن مَنِيٍّ يُمْنَى . ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّى . فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالأُنثَى ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ فَجَعَلَ مِنْهُ ﴾ : الضمير يعود على المنى . . ولا يعود على العلقة وإلا لقال فجعل منها . . فقوله تعالى : ﴿ فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالأُنثَى ﴾ يشير إلى أنه فى منى الرجل من أسرار الخلق ، ما يحدد جنس الجنين ذكراً كان أم أنثى . . ونقرأ فى سورة النجم ٤٥ ـ ٤٦ قول الله ـ عز وجل ـ :

﴿ وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ والأُنثَى . مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَى ﴾ .

فمنى الرجل ، له العلاقة المباشرة بجنس الجنين . ولم يأت ذكر البويضة فى المرأة ، لأنه لا دخل لها بتحديد جنس الجنين . . والخلق والأمر لله أولاً وأخيراً . .

ويزعم بعض أعداء الدين ، أن خلق جنس الجنين يخضع للصدفة . . ولكنهم فى ذلك مخطئون . . فالخلق لم يُبن على الصدفة . . لأن الصدفة لا تخلق نظاماً دقيقاً وثابتاً ، والعشوائية لا تنشىء خلقاً يتصف بالإعجاز والإبداع ، ولا تفاوت فيه ولا اختلاف . وفضلاً عن كل ذلك ، فإن علم الرياضيات الحديثة ، أوجد للصدفة قانوناً علمياً ، وتأكد لدى علماء الرياضيات أن قانون الصدفة والاحتمال ، لا ينطبق قط على خلق أى شىء حى . .

ولعل فى دراسة تشالز يوجين الدليل على ذلك . . فلقد أثبت ذلك العالم أنه من الناحية العلمية البحتة ، لا توجد صدفة فى الخلق أبدا . . ولا تلعب أى دور فيه . ومادام الأمر كذلك . . فلن يجد المتشكك ملجأ من الله إلا إليه . . وأن الخلق هو تقدير الخالق البارىء المصور جل شأنه . . فهو الذى خلق الحيوان المنوى وهو الذى خلق البويضة ، وهو الذى يسير كل شىء . . وهو الذى يخلق ، وهو الذى يختار .

ولعل هذا الفهم العلمى يقودنا إلى تفهم بعض ما فى سورة القصص ٦٨ من علم فى قول الله ـ عز وجل ـ ﴿ وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ ﴾ .

والله تعالى هو الذى يخلق ، ثم ينسب كيف يشاء ، كما فى قوله تعالى فى سورة الفرقان ٥٤ : ﴿ وَهُوَ الَّذِى خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَراً فَجَعَلَهُ نَسَباً وَصِهْراً وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيراً ﴾ . . وفى سورة الشورى ٤٩ يقول الله ـ عز وجل ـ : ﴿ لله مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمن يَشَاءُ إِنَاثاً وَيَهَبُ لِمن يَشَاءُ الذُّكُورَ ﴾ .

وتوصل علم الأجنة حديثاً جداً إلى معرفة تكوّن الغدد التناسلية فى الجنين . . والخصية هى الغدة التناسلية فى الذكر ، والمبيض هو الغدة التناسلية فى الأنثى ، وتنشأ الغدد التناسلية فى كل من الذكر والأنثى فى الجنين فى مكان واحد يسمى النتوء التناسلى . . ويوجد هذا النتوء التناسلى بجوار الكلية بجانب العمود الفقرى ، بين فقرات القطن وفقرات الظهر . . وعظام القطن تسمى عظام الصلب وفقرات

الظهر تسمى عظام الترائب . . فالنتوء التناسلى منشأ الغدد التناسلية الجنينية فى كل من الذكر والأنثى ، يقع بين عظام الصلب وعظام الترائب . .

وتهاجر الغدد التناسلية من مكان نشأتها الأولى إلى مكانها الدائم فى أسفل البطن . . ففى الجنين الأنثى يهاجر المبيضان من بين الصلب والترائب ، إلى داخل الحوض ويستقر فيه . . وفى الجنين الذكر ، تهاجر الخصيتان إلى خارج الحوض وتستقران فى كيس خارج البطن ، حتى تكون فى مكان أقل حرارة من حرارة الجسم ، مما يتلاءم مع حياة الحيوانات المنوية ونشاطها . . ولو عاشت فى مكان فى مثل حرارة الجسم ما تكونت الحيوانات المنوية .

ولم تكن نشأة الغدد التناسلية معروفةً قبل عصر العلم الحالى . . ولكن القرآن الكريم ذكر هذه الحقيقة فى سورة الطارق ٥ ـ ٧ فى قول الله ـ عز وجل ـ : ﴿ فَلْيَنظُرِ الإِنسَانُ مِمَّ خُلِقَ . خُلِقَ مِن مَّاءٍ دَافِقٍ . يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ ﴾ .

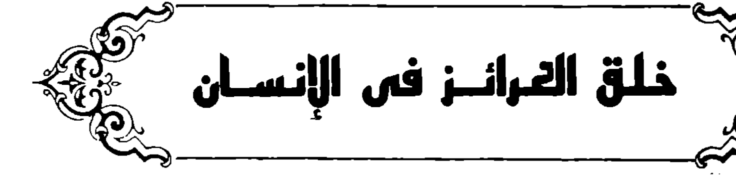
وقال ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ فى تفسير هذه الآية :

هذه هى الترائب (ووضع يده على صدره) . .

ونقرأ فى سورة الزمر ٦ وصفاً علمياً مفصلاً عن بعض أطوار خلق الجنين فى قول الله تعالى : ﴿ يَخْلُقُكُمْ فِى بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقاً مِنْ بَعْدِ خَلْقٍ فِى ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ ﴾ . فخلق الجنين يمر فى أطوار من بعد أطوار . . وخلق من بعد خلق . .

ولقد اكتشف علماء الأجنة فى عصور العلم حقائق جديدة ، وأسراراً لم تكن معروفة من قبل . . فقد جعل الله تعالى الجنين فى ظلمات ثلاث ، وهى ظلمة الكيس الأمنيوسى حول الجنين . . ثم ظلمة جدار الرحم . . ثم ظلمة جدار البطن ، وقد تكون هذه هى الظلمات الثلاث . . .

والجنين فى أول مراحل خلقه يكون من ثلاث طبقات . . وجدار الرحم أيضاً ثلاث طبقات . . كل هذه ظلمات ثلاث وكل منها يفسر قوله تعالى : ﴿ يَخْلُقُكُمْ فِى بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقاً مِنْ بَعْدِ خَلْقٍ فِى ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ ﴾ .



خلق الغرائز فى الإنسان

الإنسان هو المخلوق الوحيد ، الذى منحه الله تعالى العقل والفهم والإدراك . . ومن هنا كانت له طاقة الاختيار . . ويفكر . . ويختار . . يفعل هذا . . ولا يفعل هذا . .

أما المخلوقات الحية الأخرى ، فهى ليست عاقلة ، وتعمل وتتصرف بفطرة خلقها . . وفطرة الخلق هو نظام الخلق الثابت ، الذى خُلق كل مخلوق عليه . . ويتحكم فى كل تصرفاته وأعماله من غير اختيار . . لأن الاختيار مجاله العقل . . والكائنات الحية - فيما عدا الإنسان - لا عقل لها . .

فالذى يُسيّر أى حيوان أو كائن حى ، هو فطرة خلقه التى فطره الله تعالى عليها . . ومن الفطرة ، الغرائز والخصائص والطباع والميول . . وكلها تستكن فى العوامل الوراثية الموجودة فى كل خلية من خلايا الجسم مثل غريزة الافتراس فى السباع والطيور الجوارح . . إنها غريزة فُطرت تلك الحيوانات عليها منذ كانت أجنة فى بطون أمهاتها . . وولدت الصغار بهذه الغريزة لا تخرج عنها أبداً . . ولا تتبدل مطلقاً . . السباع تفترس غيرها من الحيوان وتعيش عليه . . والبقر يأكل العشب فى المراعى . . ومن المحال أن تتحول السباع إلى أكل العشب فى المرعى ، ومن المحال أن تتحول البقر إلى افتراس غيرها من الحيوان . . لماذا ؟ لأن كل مخلوق حى ، خرج من بطن أمه يحمل غرائزه وخصائصه وطباعه ، لا تفارقه أبدا . .

فالغرائز والخصائص وفطرة الخلق فى أى مخلوق حى ، تحكمها وتهيمن عليها عوامل الوراثة الموجودة فى خلاياه ، من يوم خلقه نطفة فى رحم أمه وإلى أن يموت . .

وإذا تحدثنا عن غرائز الإنسان نجد الأمر متماثلاً . . ولقد كان العلماء حتى إلى عهد قريب ، لا يدركون هذه الحقائق العلمية ، وكانوا يعتقدون أن غرائز أى إنسان منا وميوله وطباعه . . أمورٌ مكتسبة بعد خروجه إلى الحياة . . وتفاعله مع أحداثها . . واعتقد الماديون أن شعور الإنسان وغرائزه وطباعه وميوله . . كلها تنشأ من احتكاكه بأمور الحياة . . وضربوا بذلك مثلاً حدوث الشرارة من احتكاك قطعتين من حديد . . لأن الإنسان فى اعتقادهم مخلوق مادى ، حتى عواطفه ومشاعره مادية أيضاً . .

وعندما تقدم العلم فى القرن الحالى ، أثبت أن غرائز الإنسان وخصائصه وطباعه وميوله . . كل ذلك . . مقدر سلفا . . ومقرر من بدء خلق النطفة فى رحم أمه . . أما بعد أن يولد . . ويتعامل مع مجتمعه ويتفاعل مع الحياة وأحداثها . . فإن طباعه وغرائزه وميوله تتكيف مع ظروفه فى حياته . . ومع أفكاره ومعتقداته ، ولكنها لا تتغير فى جوهرها العام . . ولا يتبدل اتجاهها الرئيسى . .

وشتان بين قطعة من حديد . . وبين أى إنسان مكون من جسم ونفس وعقل وروح . . وما الجسم إلا إطاراً مادياً للإنسان فى حياته الدنيا ، لضرورة وجوده فى هذه الحياة ، وتفاعله مع المادة . .

إن الحقائق العلمية ، تؤكد أن خصائص الإنسان وغرائزه وطباعه وميوله . . إنما تحددها العوامل الوراثية التى تنتقل فى أمشاج الأب والأم . . لتكوّن الخلية البشرية الأولى . .

فالإنسان ـ شأنه فى ذلك شأن أى كائن حى آخر ـ يتكون من اتحاد خلية ذكرية من الأب . . ببويضة من الأم . . والخلية الذكرية من الأب تحمل نصف عدد الكروموسومات ، وبالتالى نصف عدد العوامل الوراثية من الأب ، والأمر نفسه بالنسبة للبويضة من الأم . .

وباتحادهما تنشأ أول خلية بشرية ، تحتوى على العدد الكامل للكروموسومات البشرية ،وهى ستة وأربعون كروموسوما . . عليها من العوامل الوراثية الآلاف ،

ويقدرها العلماء فى عصرنا الحاضر بمائة ألفٍ من العوامل الوراثية . . كل منها يحدد صفة وراثية معينة ، إذن فالصفات الوراثية تتكون وتتحدد تماماً من يوم خلق النطفة الأولى . . تلك النطفة التى تحمل كل العوامل الوراثية من الأب والأم معاً . .

ويخرج الإنسان من بطن أمه ، ومعه كل هذه الغرائز والطباع والميول . . فنجد مثلاً أن الطفل يقبل على الرضاع من ثدى أمه دون أن يرشده أحد إلى ذلك . . ولكنها الغريزة والفطرة . . فكل مولود إنما يولد على فطرة خلقه ، كما قال سيدنا رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : (ما من مولود إلا يولد على الفطرة) .

وجسم الإنسان مكون من آلاف الملايين من الخلايا . . كالعمارة الكبيرة المكونة من الآلاف من اللبنات أو القوالب . . وفى كل ثانية من الثوانى تموت آلاف من الخلايا . . وتحل محلها خلايا جديدة صورة طبق الأصل منها . .

ولا نرى الخلايا بالعين المجردة ، ولكنها تُرى بالمجهر . وتحت المجهر نرى فى كل خلية من خلايا أجسامنا عالماً كبيراً وعظيماً ، يعمل ليل نهار ، لا يتوقف أبدا . . ويحتوى على معامل ومصانع وأجهزة فى غاية الدقة والإبداع ، ولو أننا جمعنا ألف جهاز كومبيوتر ضخم ، وضغطناها فى حجم خلية بشرية ، لكانت الخلية البشرية أكثر دقة ونظاماً . .

وكل خلية من خلايا الجسم ، صورة طبق الأصل من الخلية الأولى فى النطفة ، فى رحم الأم . . وكل ما حدث بعد ذلك ، أن الخلايا تخصصت فى وظائف معينة ، ثم تكاثرت بعد ذلك عدداً . . وكل ذلك فى نظام دقيق مبدع لا يتغير أبدا . . ولا يتبدل مطلقاً . .

وقد يكون كل ذلك ، من بعض المعانى المكنونة فى قول الله ـ عز وجل ـ : ﴿ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلاً وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَحْوِيلاً ﴾ . . ومن العجيب أن الخلية البشرية ، فى النطفة الأولى فى رحم الأم ، والتى لايزيد قطرها على ١/٦ ملليمتر ، من العجيب أن تحمل كل هذه الأسرار فى الخلق ، والإبداع فى النظام ،

والإعجاز فى التكوين . . ونذكر قول الله تعالى فى سورة لقمان ١١ : ﴿ هَٰذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِى مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ ﴾ . .

ولم يكن العلماء وقت نزول القرآن ولا حى بعد نزوله بأكثر من ألف عام ، يدركون شيئاً عن كل هذه الحقائق ، وما كانت تخطر لهم على بال . . وظل اعتقادهم أن طباع الإنسان وغرائزه وميوله إنما تتكون فى الإنسان وتكتسب ، بعد ولادته وتفاعله مع الحياة . .

وفى أوائل هذا القرن ، بدت ملامح الحقيقة العلمية تظهر وتتضح شيئاً فشيئاً . . وذلك من خلال تقدم علم الوراثة ، وثبت أن : غرائز الإنسان وخصائصه وميوله وطباعه ، إنما تتكون وتتحدد ، والإنسان جنين فى بطن أمه ، فى مراحل خلقه الأولى ، عندما كان مخلوقاً لا يُرى إلا بالمجهر .

ولقد ذكر الله تبارك وتعالى هذه الحقيقة فى سورة النجم ٣٢ فى قوله تعالى : ﴿ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِى بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ فَلَا تُزَكُّوا أَنفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى ﴾ .

نحن المخاطبون بهذه الآية . . ويعلمنا البارىء عز وجل بحقيقة علمه بمادة خلقنا لأنه هو الذى خلقنا وبرأنا وسوانا . . وكل صانع يعلم ما صنع . .

ويعلمنا أيضاً بحقيقة علمه بأسرار خلقنا منذ كنا أجنة فى بطون أمهاتنا . . ويضع كل هذه الحقائق الثابتة فى منهج الهداية الفكرية والعقلية ، التى تقودنا إلى الهداية الدينية الجامعة ، والتى تهدف أولاً وأخيراً إلى خير الإنسان فى الدنيا والآخرة . . لم يكن الناس ـ كما قلنا ـ يعلمون أن غرائز الإنسان تتحدد منذ خلقه جنيناً فى بطن أمه . . وما علموا ذلك إلا فى النصف الثانى من القرن الحالى . . ولا يجادل أحد فى ذلك ، ولكن الله ـ عز وجل ـ أخبرنا بها فى سورة النجم ٣٢ فى قوله تعالى : ﴿ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِى بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ فَلَا تُزَكُّوا أَنفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى ﴾ .

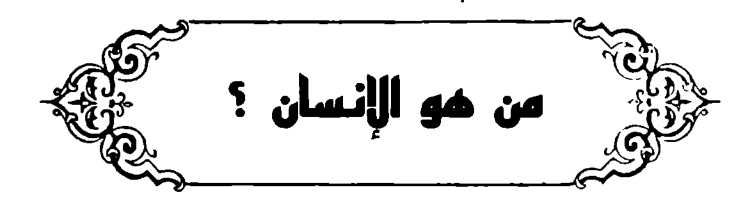
ويفسر ذلك حديث نبوى ، رواه مسلم عن أبى الطفيل ثم ابن أسيد الغفارى قال سمعت رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يقول :

[إن النطفة تقع فى الرحم أربعين ليلة ثم يتصور عليها الملك فيقول يارب أذكر أو أنثى ؟ فيجعله الله ذكراً أو أنثى . . ثم يقول : يارب أسوىٌّ أو غير سوى ؟ فيجعله الله سويا أو غير سوى ، ثم يقول يارب ما رزقه ؟ ماأجله ؟ ما خُلُقُهُ ؟ ثم يجعله الله شقيا أو سعيداً] .

وروى مسلم عن أبى الطفيل عن حذيفة بن أسيد أن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال :

[يدخل الملك على النطفة بعد ما تستقر فى الرحم بأربعين أو خمسة وأربعين ليلة فيقول : يارب أشقى أو سعيد ؟ فيكتبان . فيقول : أى رب أذكر أو أنثى ؟ فيكتبان . ويكتب عمله وأثره وأجله ورزقه . ثم تطوى الصحف فلا يزاد فيها ولا ينقص] .





من هو الإنسان ؟

الإنسان مخلوق حى . . ولكنه ككائن حى ، مجهول حتى لنفسه . . فلا يستطيع إنسان أن يعلم من هو الإنسان ! ولقد اعترف العلماء بهذه الحقيقة . . لقد حاول الإنسان أن يكتشف الفضاء ويتعرف على الكواكب البعيدة . . بل والنجوم فى أعماق المجرة . . بل وحاول دراسة المجرات ورؤيتها بالتلسكوب الفلكى . . ونجح فى ذلك إلى حد بعيد ، ونجح أيضا فى الوصول إلى سطح القمر . . وتعرف على قيعان البحار والمحيطات وطار فى الجو بالطائرات . . ومع كل هذا التقدم العلمى وقف الإنسان عاجزا أمام معرفة نفسه . . فأى عالم مهما بلغ علمه لا يستطيع الإجابة عن السؤال :

من هو الإنسان ؟ وما هى النفس ؟ وما هو الروح ؟ .

وقال الدكتور الكسيس كاريل المتوفى سنة ١٩٤٤ (إن معرفتنا بالإنسان مازالت معرفة بدائية . . وهو مجهول لنفسه) . . وقال لوكاس أحد المفكرين الذين يعتنقون المذاهب المادية الجدلية : (إن الإنسان الحقيقى كائن مجهول لنا وسيظل جهلنا به إلى الأبد) . . وإننا لنختلف مع الماديين الجدليين فى كثير من القضايا الفكرية . . إلا أننا نوافقهم على هذا الرأى . . ونشهدهم على أنفسهم به . . فالإنسان كائن مجهول لنا . . وسيظل جهلنا به إلى الأبد . .

وكلما تعمقنا فى التفكير فى أسرار خلق الإنسان . . وأحوال معيشته فى الحياة الدنيا . . كلما ازددنا عجبا . . فالإنسان ليس مجهولا لنفسه فحسب . . ولكنه يجهل التعامل مع نفسه أيضاً . . وكيف كان ذلك ؟ حتى نفهم ذلك علينا أن نضرب الأمثال . . إننا إذا علمنا أن رجلا لم يتعلم الطب ولم يمارس مهنة الطب . .

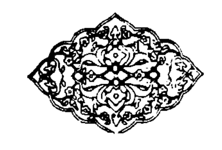
ولكنه حاول أن يعالج مريضا ويعطيه الدواء . . ألا ينكر الناس عليه ذلك ؟ . . بل إنهم ينكرون عليه ذلك . . لأنه تدخل فى علاج شىء يجهله . . وإذا تعطلت سيارة أحد الناس . . وذهب صاحبها إلى نجار مثلا ، وطلب منه أن يصلح عطل السيارة . . أيكون تصرفه سليما ؟ . . كلا . . لا يكون تصرفه سليما . . لأنه طلب ممن يجهل صناعة السيارة ، وطريقة عمل محركها أن يصلحها .

إن الأمر نفسه صحيح بالنسبة للإنسان والقوانين الوضعية ، التى تنظم أمور حياته وتصون حقوقه . . وتعالج مشكلات المجتمع . . أنها لا يمكن أن تكون صحيحة . . ومحال أن تكون مناسبة للإنسان ولإصلاح المجتمع الإنسانى وصيانته . . لأن الذى وضع تلك القوانين إنسان . . وجمهور العلماء يعترف صراحة أنه لا يعرف من هو الإنسان . . وأن الإنسان كائن مجهول لنا . . وسيظل جهلنا به إلى الأبد . . ومادام الأمر كذلك فكيف يتأتى لأى إنسان ، أن يضع قانونا يصلح به الإنسان أو يصون به حقوقه ، أو يعالج أمور حياته ومشكلاتها ؟ إن أى إنسان يشرع قانونا لينظم به حياة الناس ، هو أشبه بالإنسان الذى يجهل الطب ويعالج المرضى . . والنجار الذى يقوم بإصلاح سيارة معطلة . فكما أن هؤلاء قد تدخلوا فى أمور لا يحسنون التصرف الصحيح فيها ، فكذلك الذى يشرع قانونا وضعيا يكون قد تدخل فيما يجهله . . وفيما لا يعرف عنه شيئا .

لذلك نجد أن القوانين الوضعية لا تستمر طويلا . . وسرعان ما يثبت فشلها وعدم صلاحيتها . . فيغيرونها ويبدلونها . . ثم يعدلونها . . وقد يلغونها ويضعون غيرها . . وهكذا يدورون فى حلقة مفرغة ، من التبديل والتعديل والإلغاء . . ولو كانت صحيحة ما غيروها وما بدلوها تبديلا . . الإنسان مجهول لنفسه . . هذه حقيقة لا يختلف عليها اثنان . . ولكن من الذى يعرف الإنسان حق المعرفة ؟ إنه هو الله الذى خلقه والخالق أعلم بمن خلق . فالله تعالى هو الذى خلق الإنسان وبرأه وذرأه فى هذه الأرض وهو القائل : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ ﴾ .

والله تعالى الذى خلق الإنسان . . أرسل معه كتاب صيانته ، وهو الوحى الإلهى فى القرآن والسنة النبوية . . القرآن والسنة هو « القانـون الأسمى » ، والشريعـة المثلى ، لصيانة الإنسان وعلاج مشكلاته فى الحياة الدنيا . . وإصلاح عثراته وأخطائه . . وتنظيم حياة الناس جميعا فى المجتمع الإنسانى . . إنه هو القانون الخالد ، الذى لا يصلح للبشرية سواه ، والذى ثبت صلاحه لكل زمان ومكان . . ودليل ذلك أنه تنزه عن التبديل . . وتنزه عن التعديل . . وظل منذ نزول الوحى على رسول الله (ﷺ) وإلى اليوم . . وإلى يوم القيامة . . ثابتا خالداً وصالحا لكل زمان ومجتمع ومكان . . بدون تبديل وبدون تعديل وبدون تحويل . كما قال الله تعالى فى سورة فاطر ٤٣ ﴿ **فَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلاً وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَحْوِيلاً** ﴾ وفى سورة الأنعام ١١٥ يقول الله تعالى : ﴿ **وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ صِدْقاً وَعَدْلاً لاَّمُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ** ﴾ وفى سورة الكهف ٢٧ يقول الله عز وجل : ﴿ **وَاتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ لاَ مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِ مُلْتَحَدًا** ﴾ .

ونعود مرة أخرى ونسأل : من هو الإنسان ؟ لا يعلم الجواب عن هذا السؤال إنسان قط . . فإن الله تعالى استأثر بالعلم فى ذلك . . فإن أكثر أسرار خلق الإنسان من الغيبيات . . وإذا أراد أى مفكر أن يعرف شيئا صحيحا عن الإنسان . . فليعد إلى مصدر العلم الوحيد عن ذلك ، وهو الوحى الإلهى فى القرآن والحديث النبوى . . ففيهما الخبر اليقين . . والحديث الصادق . . ومن أصدق من الله حديثا ؟



حقيقة النفس البشرية

لا يعرف أحد حقيقة الإنسان ، إلا الذى خلقه وهو الله تبارك وتعالى . . ولقد تحدث كثير من الناس فى هذا الموضوع . . ووجدوا أنفسهم أخيراً يدورون فى حلقة مفرغة من الفكر ، فأعلنوا أن الإنسان كائن مجهول لنفسه ، وسيظل جهلنا به إلى الأبد .

ونعود إلى القرآن والسنة ، مصدر العلم الوحيد عن كل الحقائق الغيبية ، فنجد الجواب عن السؤال : من هو الإنسان ؟

إن الله تعالى خلق آدم جسداً من طين . ثم سواه ونفخ فيه من روحه ، فصار بذلك بشرا سويا . . فتمام التسوية كان بالنفس . . وتمام البشرية كان بنفخ الروح فيه . . ويحتمل أن تكون النفس البشرية باتصال الروح بها ، هى شخصية الإنسان وذاته البشرية . . وهى التى تفكر ، وهى التى تأمر بالخير أو بالشر . . وهى التى لها قدر من الاختيار بين البدائل .

وإذا قربت النفس البشرية من الحياة المادية وإشباع الغرائز البدنية ، فإنها تكون مدخلا للشيطان إلى النفس البشرية . . إما إذا سمت النفس البشرية عن ذلك وتحصنت بطاعة الله تعالى . . فإنه لن يكون للشيطان عليها سلطان . . وينعم الإنسان بالسعادة فى الدنيا والآخرة . . ونذكر قول الله عز وجل فى سورة الشمس : ﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا . فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا . قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا . وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا ﴾ قد أفلح من زكاها : أى من زكى نفسه بالطاعة . وقد خاب من دساها : أى خاب من دسّ نفسه فى المعاصى ، وروى الإمام أحمد عن ابن عمر أن حمزة بن عبد المطلب جاء رسول الله ـ ﷺ ـ فقال : يارسول الله اجعلنى على شىء أعيش به . فقال رسول الله ـ ﷺ :

يا حمزة نفس تحييها أحب إليك أم نفس تميتها ؟ فقال حمزة : بل نفس أحييها ، فقال رسول الله ـ ﷺ : عليك بنفسك .

نفهم من الحديث الشريف أن على الإنسان أن يعيش فى الدنيا ، وقد أحيا نفسه بطاعة الله تعالى والتقرب إليه . وروى الإمام أحمد والترمذى عن فضاله بن عبيد أن رسول الله ـ ﷺ قال (المجاهد من جاهد نفسه) والنفس البشرية هى التى تأمر الإنسان فى الدنيا بالخير والشر . . والنفس البشرية هى التى تجادل عن نفسها يوم القيامة . . ولا دخل للروح أو الجسم فى كل ذلك . . فالحساب يكون للنفس البشرية . . أما الجسم فهو من تراب هذه الأرض ، وهو إطار للنفس والروح والعقل فى الحياة الدنيا وهو مسير بأمر الله عز وجل ، وهو مسبح له وساجد وعابد ، ولا يعصى الله ما أمره أبدا . . مثله فى ذلك مثل كل شىء فى السماوات والأرض ، أما الروح فهى من أمر الله تعالى . . ونقرأ عن ذلك فى سورة النحل ١١١ فى قول الله تعالى : ﴿ يَوْمَ تَأْتِى كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَن نَّفْسِهَا وَتُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ وروى مسلم فى صحيحه عن أنس ـ رضى الله عنه قال :

كنا عند رسول الله ـ ﷺ ـ فضحك فقال : هل تدرون مم أضحك ؟ قال قلنا : الله ورسوله أعلم قال : عن مخاطبة العبد ربه يقول : يارب ألم تجرنى من الظلم ؟ فيقول الله عز وجل : بلى . فيقول العبد : فأنى لا أجيز على نفسى إلا شاهدا منى . فيقول الله عز وجل : كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيباً وبالكرام الكاتئين شهودا قال : فيختم على فيه . فيقال لأركانه : انطقى . فتنطق بأعماله . ثم يخلى بينه وبين الكلام فيقول : بعداً لكن وسحقا فعنكن كنت أناضل)

أركانه : أى جوارحه وأعضاء جسمه .

كنت أناضل : أى كنت أدافع عنكن وأجادل .

فالنفس هى التى ستحاسب يوم القيامة على ما اقترفت من آثام ، ولن يحاسب الجسم ولا الروح . . وليس لأعضاء الجسم من دور يوم الحساب إلا الشهادة على

صاحبها . . وإذا أدخل إنسان إلى النار ، فتحرق جلده وأعضاء جسمه لا عقابا للبدن ، ولكن لتحس النفس البشرية بالعذاب .

ونقرأ فى سورة النساء ٥٦ قول الله عز وجل :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَاراً كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَاهُمْ جُلُوداً غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ إِنَّ اللَّه كَانَ عَزِيزاً حَكِيماً ﴾ .

وفى سورة البقرة ٢٨٦ يقول الله تعالى : ﴿ لاَ يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْساً إِلاَّ وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ ﴾ .

والنفس البشرية واحدة من ثلاثة : نفس أمارة بالسوء ونفس لوامة ، ونفس مطمئنة .

١ - والنفس الأمارة بالسوء : هى التى تسعى للإضرار بالناس . . كما فى سورة يوسف ٥٣ فى قول الله تعالى : ﴿ وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِى إِنَّ النفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلا مَا رَحِمَ رَبِّى إِنَّ رَبِّى غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ .

٢ - والنفس اللوامة : هى التى تلوم صاحبها إذا فعل المعاصى . . وتحثه على العودة إلى عمل الخير . .

ونقرأ فى سورة القيامة ، قول الله تعالى ﴿ وَلاَأُقْسِمُ بِالنفْسِ اللَّوَّامَةِ ﴾ .

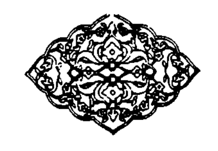
٣ - والنفس المطمئنة : هى التى تجد لذتها فى فعل الخير . . وهى نفس لا تهتز من مصاعب الحياة . . ولا ترهقها متاعب الدنيا وتقلباتها . . فهى نفس مطمئنة إلى قضاء الله وقدره ، وواثقة بربها ، ومطمئنة بذكر الله ، ومتجهة إلى الله تعالى وراضية بحكمه فى كل شىء . . نقرأ عنها فى سورة الفجر ٢٧ قول الله تعالى : ﴿ يَاأَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ارْجِعِى إِلىَ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴾ . .

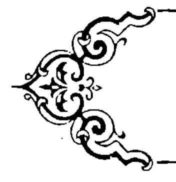
وصفات النفس البشرية تختلف باختلاف أحوالها . . فقد تسمو النفس الإمارة بالسوء وتصير نفسا مطمئنة يوما . . وقد تكون نفسا لوامة يوما آخر . . وقد تظل كما

هى أمارة بالسوء . . وكذلك باقى درجات النفس البشرية . . كل منها يختلف ولا يثبت على حال ، إلا إذا أراد الله تعالى لها الثبات .

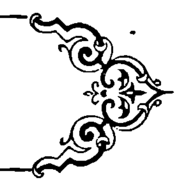
والنفس الأمارة بالسوء تؤدى بالإنسان إلى الخسران فى الدنيا والآخرة ، وهى أعدى أعداء الإنسان . . فقد أخرج البيهقى حديثا عن ابن عباس رضى الله عنهما أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال : (أعدى عدوك النفس التى بين جنبيك) .

والنفس البشرية غير مادية . . وهى من الغيبيات . . فلا تخضع للعلم التجريبى ، وليس لها من مصدر للعلم عنها إلا الوحى الإلهى فى القرآن والحديث النبوى ، لذلك قال العلماء فى عصور العلم (إن الإنسان كائن مجهول لنا) وقال آخرون (وسيظل جهلنا بالإنسان إلى الأبد) .





حقيقة الذات الإنسانية



النفس البشرية منبع الغريزة فى الإنسان . . وهى سر الحياة فى الجسم وهى التى تُزهق بالقتل . . وهى التى تحس بنعمة الترف أو تشعر بالعذاب . وهى التى تُلهم الإنسان إما بالفجور وإما بالتقوى . . وهى التى تعمل مهتدية بالعقل تارة ، أو منقادة لغرائز الجسم تارة أخرى . . وهى التى تسير فى طريق الهداية . . أو تتبع نزغ الشيطان وتأتمر بأمره . . ومن ثم فهى التى تحاسب على ما تعمل كما فى سورة البقرة ٢٨١ فى قول الله عز وجل :

﴿ وَاتَّقُوا يَوْماً تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ ﴾ وفى سورة آل عمران ١٨٥ فى قول الله تعالى ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّماَ تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾ . وفى سورة الأنعام ١٥١ يقول الله جل جلاله : ﴿ وَلاَ تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِى حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ ﴾ . والإنسان مكون من أربع جواهر : الجسم ، والنفس ، والعقل ، والروح . والجسم يحيِّز الملكات الثلاث : النفس ، والعقل ، والروح . . ومجموع الملكات الثلاث يكوّن الذات الإنسانية .

فالذات الإنسانية ، أعم من النفس ومن العقل ومن الروح . . لذلك فإن الذات الإنسانية هى التى تحاسب النفس إذا مال بها الهوى عن طريق الحق ، كما قال الله تعالى فى سورة النازعات ٤٠ . ﴿ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِىَ الْمَأْوَى ﴾ من الذى خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى ؟ من هو ؟ إنها الذات الإنسانية . . وهو مجموع ملكات الإنسان . . فهو الذى يخاف مقام ربه . . وهو الذى ينهى النفس عن الهوى .

ويتوسط العقل بين النفس والروح . . فالإنسان يعلو على نفسه بعقله ، ويعلو على عقله بروحه . . والنفس تتعلق بها الغرائز الحسية . . والروح تتأثر بسر الوجود والخلود . . لأنها من أمر الله تعالى . . والعقل بين النفس والروح . . ولقد جاء لفظ « روح » فى القرآن الكريم يدل على أكثر من معنى : جاء بمعنى جبريل عليه السلام كما فى سورة مريم ١٧ فى قول الله عز وجل : ﴿ فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمثل لَهاَ بَشَراً سَوِيًّا ﴾ وجاء بمعنى القرآن العظيم كما فى سورة الشورى ١١ فى قول الله تعالى : ﴿ وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحاً مِنْ أَمْرِنَا ﴾ . وجاء بمعنى الوحى الإلهى كما فى سورة النحل ٢ فى قول الله جل جلاله : ﴿ يُنَزِّلُ الْمَلاَئِكَةَ بِالرُّوحِ مِن أَمْرِهِ عَلَى مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ﴾ .

وجاء بمعنى الروح الذى ينفخه الله تعالى فى الجسد فيصير بشرا سويا ، كما فى سورة الحجر ٢٩ فى قول الله تعالى : ﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِى فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ﴾ .

وروى البخارى أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال :

(يجمع أحدكم فى بطن أمه أربعين يوما نطفة ، ثم يكون علقة مثل ذلك ، ثم يكون مضغة مثل ذلك ، ثم يرسل إليه الملك ، فينفخ فيه الروح ، ويؤمر بكتابة أربع ، رزقه وأجله وعمله وشقى أو سعيد) .

وفى رواية مسلم أن رسول الله ـ ﷺ قال :

(يجمع أحدكم فى بطن أمه أربعين يوما نطفة ، ثم يكون فى ذلك علقة مثل ذلك ، ثم يكون فى ذلك مضغة مثل ذلك ، ثم يرسل إليه الملك فينفخ فيه الروح) (إلخ الحديث) .

من رواية البخارى ، نفهم أن الروح ينفخ فى الجنين بعد تمام الأربعة أشهر الأولى . . ومن رواية مسلم ، نفهم أن الأربعينيات الثلاثة متداخلة فى بعضها البعض . . أى إن تكوّن أعضاء الجنين وأطوار خلقه ، تتزامن مع بعضها البعض . .

وبالتالى ينفخ الروح فى الجنين فى أقل من أربعة أشهر ، وقد يكون بعد ثلاثة أشهر مثلا والله تعالى أعلم بخلقه .

وبعد تمام نفخ الروح يصير الجنين بشرا . . أى إن بداية الحياة البشرية فى الإنسان يوم يكون جنينا فى بطن أمه بعد ثلاثة أو أربعة أشهر . ومعلوم أن الجنين حى فى بطن أمه قبل ذلك الوقت ويتغذى وينمو ، وفى ذلك الدليل على أن الروح ليس سر الحياة فى الجسم . . وإنما سر الحياة يكمن فى النفس البشرية .

من هذا نفهم أن الجسم والنفس مثلها كمثل مصباح معد للإضاءة ، ولكنه لا يضىء إلا إذا وصله التيار الكهربائى . . والتيار الكهربائى فى هذا يمثل الروح .

وجاء لفظ روح بكافة معانيه ، وبصفة شاملة فى سورة الإسراء ٨٥ فى قول الله تعالى : ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً ﴾ ولقد أمسك كثير من العلماء عن التكلم عن الروح اتباعا لقوله تعالى : ﴿ وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً ﴾ . . واجتهد علماء آخرون فى محاولة التعرف عليه .

وقال الإمام الشعرانى : لم يبلغنا أن النبى ـ ﷺ ـ تكلم عن حقيقة الروح مع أنه سئل عنها . . فنمسك عنها أدبا . . إن الروح شىء استأثر الله تعالى بعلمه . . ولم يطلع عليه أحداً من خلقه إلا ما كان بوحى ولا يجوز البحث عنه بأكثر من أنه موجود .

وقال جمهور المتكلمين : الروح جسم لطيف مشتبك بالبدن ، اشتباك الماء بالعود الأخضر . . وقال الإمام الغزالى :

إنه لا ينبغى أن يتكلم فى الروح إلا الخاصة ، أو خاصة الخاصة . . وسمى هذا الأمر « المضنون به على غير أهله » .

واختلف بعض العلماء فى ماهية النفس والروح ، حتى أن بعضهم اعتقد أنهما شيء واحد . وقال أبو بكر بن الأنبارى : الروح والنفس واحد ، غير أن الروح مذكر

والنفس مؤنثة عند العرب . . وأننا لا نرى هذا الرأى ، ونرى أن النفس هى سر الحياة ، وهى موجودة فى الجسم قبل نفخ الروح فيه ، وإذا غادرت الجسم غادرته الحياة . . والنفس هى التى تحاسب وهى التى تعذب . . وأما الروح فهو سر الوعى والإدراك ، وهو من أمر الله عز وجل . . والروح فى اللغة يذكر ويؤنث .

وما علاقة الجسم بالروح ؟

الجسم إطار مادى عارض . . والروح باقية خالدة . . وهى من أمر الله تعالى . . وإذا مات الإنسان تركته نفسه وعادت إلى ربها لقوله تعالى : ﴿ **يَاأَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً** ﴾ . . وعادت روحه أيضا . . ومعنى ذلك أن الإنسان عندما يموت لا يفقد شيئا من ذاته الإنسانية . . ويعود إلى ربه بكل وعيه وإدراكه وعقله .

إن جسم الإنسان مكون من خلايا . . لكل منها عمر وينتهى . خلايا تموت وتحل محلها خلايا جديدة . . إذن فجسم الإنسان يموت كله ويتجدد ، والإنسان حىٌّ فى الدنيا . . وإننا إذا رأينا إنسانا . . فإن جسده الذى نراه اليوم ، ليس هو الجسد الذى رأيناه منذ سنة مضت مثلا . . لقد انتهى الجسم القديم وحل محله جسد جديد ، بخلايا جديدة ، لم تكن موجودة من قبل . . تغير منه الشعر غير الشعر ، والجلد غير الجلد ، واللحم غير اللحم ، وكذلك سائر أعضاء البدن . . وذلك باستثناء خلايا الجهاز العصبى المركزى .

إذن فحياة الإنسان ، غير متوقفة على موت الجسم أو حياته . . فإذا مات الإنسان الموتة الكبرى ، يموت جسده كله ويتحلل ، وتتركه الذات الإنسانية حية لم تمت بموت الجسم . فقد رأينا الإنسان حيا بذاته الإنسانية فى الحياة الدنيا ، وجسده يموت ويحيا ، ثم يموت ويحيا ، وهكذا الروح لا تموت بمعنى العدم . والنفس

لا تموت . وذات الإنسان لا تموت . وإنما تنتقل الذات البشرية بالوفاة إلى حياة أخرى باقية خالدة .

ودليل بقاء الذات البشرية حية بعد الوفاة ، مارواه الصحيحان أن رسول الله ـ ﷺ ـ وقف على قتلى المشركين فى بدر ـ وكان منهم أبو جهل بن هشام ، وأمية بن خلف ، وعتبة بن ربيعة ، وشيبة بن ربيعة ـ فجعل رسول الله ـ ﷺ ـ يناديهم بأسمائهم وأسماء آبائهم : يافلان بن فلان . . يافلان بن فلان إنا قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقا . . فهل وجدتم ما وعدكم الله ورسوله حقا ؟

فقال عمر : يارسول الله ما تكلم إلا أجساداً لا أرواح فيها فقال رسول الله ـ ﷺ ـ (والذى نفسى بيده ما أنتم بأسمع لا أقول منهم) .



علاقة الجسم بالنفس والروح

لاشك أن الروح هى التى تكمل الذات البشرية فى الإنسان ، وسر الوعى والإدراك فيه ، وقبل نفخ الروح فى الجنين لا يكون بشراً . . وما أسجد الله تعالى الملائكة لآدم إلا بعد نفخ الروح فيه . . كما قال تعالى : ﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ﴾ .

وما علاقة الجسم بالنفس ، وعلاقة الروح بهما ؟

هناك نوع من التعلق بين الجسم والنفس والروح فى الجنين فى الشهر الرابع الرحمى ، وهو تعلق محدود يتفق مع متطلبات حياة الجنين فى رحم أمه . . وهناك تعلق بين الجسم والنفس والروح فى الطفل عقب ولادته ، وهو أكبر من التعلق به وهو جنين قبل ولادته .

وهناك تعلق بالجسم والنفس والروح أثناء اليقظة . وتعلق آخر أثناء النوم . وتعلق الجسم بالنفس واحد أثناء النوم واليقظة . . أما تعلق الروح بهما فيختلف أثناء اليقظة عنه أثناء النوم . . أثناء اليقظة ، يكون التعلق مع الروح كاملا . . وعندما تبتعد الروح عن الجسم شيئاً قليلاً ، يأتى النوم ويغشى الجسم ويسيطر عليه ، وعندما تعود الروح إلى الجسم مرة أخرى ، يستيقظ من نومه ويعود إليه الوعى والإدراك . .

وهذه أمور غيبية لا يمكن للإنسان معرفتها إلا من الوحى الإلهى فى القرآن والحديث النبوى . . ولقد علمنا علاقة الروح بالجسم والنفس أثناء اليقظة ، وأثناء النوم ، من الحديث النبوى . . فقد ورد فى السنة أن رسول الله ﷺ كان يدعو ربه عندما يقوم من نومه فى الصباح يقول :

« الحمد لله الذى أحيانا بعد أن أماتنا وإليه النشور . الحمد لله الذى رد إلي روحى وعافانى فى جسدى وأذن لى بذكره » .

فالنوم حالة تبتعد الروح فيها عن الجسم والنفس ـ مع وجود اتصال بينهما لا ينقطع ـ والنوم نوع من الموت . . ولكنه موت أصغر . . لأن النفس لا تترك الجسم أثناءه .

وتقرأ فى سورة الزمر ٤٢ قول الله عز وجل :

﴿ اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَى عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَى إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ .

اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا : أى يقبض النفس عند انتهاء أجل الإنسان فى الدنيا .

والتى لم تمت فى منامها : اختلف العلماء فى تفسير الآية . . فقال ابن عباس : أى يقبض النفس مع إبقاء أرواحها فى أجسادها .

وقال الفراء : النفس التى لم تمت . . فإن توفيها نومها . . ويكون التقدير القول : والتى لم تمت وفاتها نومها .

وقال ابن عباس وغيره من المفسرين : إن أرواح الأحياء والأموات ، تلتقى فى المنام ، فتتعارف ما شاء الله لها . . فإذا أراد جميعها الرجوع إلى الأجساد ، أمسك الله أرواح الأموات عنده ، وأرسل أرواح الأحياء إلى أجسادها .

وقال سعيد بن جبير : الله يقبض أرواح الأموات إذا ماتوا ، وأرواح الأحياء إذا ناموا . فتتعارف ماشاء الله لها أن تتعارف ﴿ فيمسك التى قضى عليها الموت ويرسل الأخرى ﴾ أى يعيدها .

وقال القشيرى : المفهوم من الآية ، أن النفس المقبوضة فى الحالين شىء واحد ﴿ فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَى عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَى إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى ﴾ .

ولقد اختلف العلماء المفسرون فى النفس والروح . . وهل هما شىء واحد أم

هما جوهران مختلفان . . قال بعضهم : الأظهر أن النفس والروح جوهر واحد ودليلهم فى ذلك دعاء رسول الله ﷺ عندما كان ينام يقول :

(سبحانك ربى بك وضعت جنبى وبك أرفعه . إن أمسكت نفسى فاغفر لها وإن أرسلتها فاحفظها بما تحفظ به عبادك الصالحين) .

ولا نرى فى حديث رسول الله ﷺ ما يدل على أن النفس والروح شىء واحد ، فقوله ﷺ إن أمسكت نفسى فاغفر لها : أى إذا قدرّت عليها الموت . . وإن أرسلتها : أى لم تقدر عليها الموت . . وقال الزمخشرى : النفس التى تتوفى فى النوم نفس التمييز لا نفس الحياة .

رأينا أن الذى يموت ليس الروح . . ولكن النفس هى التى تموت .

ونجد الدليل على ذلك فى القرآن والحديث النبوى .

ففى سورة آل عمران يقول الله تعالى :

﴿ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ كِتَابًا مُّؤَجَّلاً ﴾ .

وفى سورة آل عمران أيضاً ١٨٥ يقول الله سبحانه : ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ﴾ .

وفى سورة المنافقون ١١ يقول الله عز وجل : ﴿ وَلَن يؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا ﴾ .

وفى سورة لقمان ٣٤ يقول الله تعالى : ﴿ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ﴾ .

وجاءت حقيقة الموت يقع على النفس ، وليس على الروح أو الجسم ، فى الحديث النبوى أيضاً . فقد روى ابن ماجه فى سننه عن جابر رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : (ياأيها الناس : اتقوا الله وأجملوا فى الطلب . فإن نفسا لن تموت حتى تستوفى رزقها) . . الخ الحديث الشريف .

وروى البخارى ومسلم ، أن قيس بن سعد ، وسهل بن حنيف ، مرت بهما جنازة فقاما فقيل لهما : أنها من أهل الأرض (يعنى جنازة كافر) فقالا : إن رسول الله ﷺ مرت به جنازة فقام . فقيل له : إنه يهودى فقال ﷺ : أليست نفسا ؟

من هذه الآيات الكريمة ، والأحاديث النبوية الشريفة ، نفهم أن النفس هى التى تموت ، وأن الروح لا تموت ، فهى من أمر الله ، ولا نرى أن النفس والروح شىء واحد ، كما يعتقد بعض العلماء والمفسرين .

وهل النوم نوع من الموت ؟ نعم النوم موتة صغرى يغادر الروح فيها الجسد ، ولكن يظل متعلقا به . . ولكن لا تغادره النفس قط ، إلا عند الموت وانتهاء الأجل . . وروى جابر رضى الله عنه قال : قيل يارسول الله أينام أهل الجنة ؟ فقال ﷺ (لا . . النوم أخو الموت ، والجنة لا موت فيها) . . ولقد قدّر الله تعالى أن يكون الإنسان فى الحياة الدنيا ، فكان لابد أن يتلبس الروح بالجسد . . وأن يكون ذلك على درجات مختلفة ، أثناء مراحل حياة الإنسان المتعددة . . وعندما يتوفى الإنسان الوفاة الكبرى تُقبض النفس وتعود إلى ربها . . وتترك الروح الجسم ، ولا تعود إليه بعد ذلك .

ولكنها تظل متعلقة به تعلقا برزخيا خاصا أثناء حياة البرزخ . . وهو تعلق لا يحيط بعلمه إلا الله تعالى . . نفهم ذلك من مخاطبة رسول الله ﷺ لقتلى المشركين فى بدر وما نسب إليهم رسول الله ﷺ من الفهم والسمع بعد قتلهم وما ورد أيضاً فى الحديث النبوى : أن الميت يسمع وقع أقدام مشيعيه . . هذه بعض ملامح علاقة الجسم بالنفس ، وعلاقة الروح بكل منهما . . وما ينبغى أن نتكلم فى النفس والروح باجتهاد أو بظن . . فإن حقيقة الإنسان لا يعلمها أحد من الناس . . ولا يحيط بها علما إلا الله تعالى . . وحياة الإنسان فى الدنيا تمر بأطوار مختلفة . . وحياة الإنسان فى الآخرة تمر بأطوار مختلفة أخرى . . فالحياة فى الجنين داخل الرحم قبل نفخ الروح ، غير حياته بعدها ، والحياة فى الدنيا تختلف عن الحياة فى الرحم . . والحياة فى البرزخ بعد الموت غير الحياة فى الآخرة ، وهكذا ينتقل الإنسان من موت إلى حياة ، ثم إلى موت ينتقل به إلى حياة فى البرزخ ، ثم إلى حياة بعد ذلك خالدة ، لا موت فيها أبدا ، فى ملكوت من ملكوتات الله تعالى ، أوسع وأرحب من الدنيا ، يكون فيها شقيا أو سعيدا .



توصل علماء الأنثروبولوجى (علم الإنسان) إلى أن جميع البشر ينتمون إلى سلالة واحدة فى بدء الخلق . . ثم تفرقت بعد ذلك سلالات مختلفة . . والسلالات البشرية تشترك فى صفات عامة ، ونظام وراثى عام ، ولكنها تختلف فى بعض الصفات البدنية مثل لون الشعر ، ولون البشرة ، ولون قزحية العين ، وشكل الأنف ، وشكل العينين ، والشفتين ، وطول الجسم ، وملامح الوجه ، وغير ذلك من الصفات البدنية .

وما هى أسباب الاختلافات فى الصفات الوراثية بين السلالات البشرية ؟ هناك أسباب أهمها :

أولا : الطفرات الوراثية : وهى تغيرات فى بعض العوامل الوراثية بسبب أو لآخر ، ينتج عنها تغيرات فى الصفات البدنية التى يتوارثها جيل من بعد جيل .

ثانيا : عزلة الشعوب عن بعضها البعض : هى من أسباب ظهور سلالات بشرية مختلفة لها صفات خلقية مميزة لكل منها . . فالهنود الأمريكيون مثلا لم يتزاوجوا مع الأستراليين . . وذلك لبعد المسافة بينهم التى يفصلها المحيط الهادى . . وكذلك أهل المناطق القطبية «الأسكيمو» ، لم يتزاوجوا مع سكان المناطق الاستوائية .

وإذا اختلطت سلالتان ، نتج عن ذلك سلالة أخرى تختلف عنهما فى بعض الصفات الخلقية بناء على القوانين الوراثية .

وهناك خمس سلالات بشرية رئيسية :
١ ـ السلالة القوقازية .
٢ ـ السلالة الزنجية .
٣ ـ السلالة المغولية .
٤ ـ سلالة الهنود الحمر .
٥ ـ السلالة الاسترالية .

والسلالة القوقازية : هى أكثر سلالات البشر عددا . . واطلق عليها بلوبنباخ Blobenbakh هذا الاسم فى القرن الماضى . . وتتميز هذه السلالة بالصفات الخلقية الوراثية التالية :

لون البشرة الذى يتراوح بين الأبيض والقمحى والبنى الغامق ، وننتمى نحن العرب إلى هذه السلالة . . وتنقسم السلالة القوقازية إلى سلالات فرعية منها :
١ ـ السلالة الشمالية : وهم سكان أوروبا وأمريكا الشمالية .

٢ ـ سلالة البحر الأبيض المتوسط : وهم سكان حوض البحر الأبيض المتوسط .
٣ ـ السلالة الألبية : وهم سكان أوروبا الشرقية .

اما السلالة المغولية : وتأتى بعد السلالة القوقازية فى العدد ، وتتميز بشعر بنى مستقيم . ولون العين بنى ، والرأس عريض ، وميل مميز فى الشكل الخارجى للعينين ، والأنف صغير ، ولهذه السلالة سلالات فرعية أخرى : وتقطن الشرق الأقصى .

اما السلالة الاسترالية : هم سكان استراليا الأصليون ، ولا يزيد عددهم الآن على خمسين ألف نسمة . . وبشرتهم سوداء . وحجم المخ أقل من حجم مخ

القوقازيين . . وهم أكثر السلالات الموجودة بدائية فى سلم التطور الثقافى والبدنى .

ولقد اعتقد بعض الباحثين قديما أن بعض السلالات البشرية أرقى من بعضها الآخر . . وأقدر على صنع الحضارة . . ولقد زاد تعصب الكثيرين وخاصة فى غرب أوروبا وأمريكا الشمالية لهذه الأفكار . . وهم من السلالة الآرية Aryanism (أى سلالة الرجل الأبيض) أو (السلالة الشمالية) واعتقدوا أنهم أنقى وأرقى سلالات البشر . . وبالتالى فهم أكثر البشر ذكاء وقدرة على صنع الحضارة الإنسانية . . واتخذوا من اعتقادهم المخطىء هذا ، مبرراً لاستعمار الدول الأخرى واستعباد شعوبها .

وذكر هيجل فى أوائل القرن الماضى فى كتابه (خطاب إلى الأمة الألمانية) أن الجنس الألمانى جنس «نقى» . . وأن الشعوب الأخرى شعوب مختلطة غير خالصة وغير أصيلة . . وتحمس الكونت دى جوبينو De gobineau فى النصف الثانى من القرن الماضى لأفكار هيجل ، ودعا إلى التعصب العنصرى للجنس الآرى . . وقال إنه أرقى السلالات البشرية ، ويجب أن يسود العالم . وكتب أفكاره فى كتاب نشره سنة ١٨٥٤ عنوانه : (رسالة عن تفاوت السلالات البشرية) واعتقد أن العمل على إزالة الفوارق بين الشعوب ، سيؤدى إلى دمار السلالات النقية . . ولقد كانت أفكار هيجل وجوبينو أحد أسباب الحروب العالمية ، التى قامت فى أوروبا . . وكانت أيضاً من أسباب التفرقة العنصرية ، فى كل من أمريكا وجنوب أفريقيا ، بين السود والبيض .

وما هى قصة السلالة الآرية التى زعم كثير من أهلها أنها أكثر البشر نقاءً ورقيا ؟

القصة ترجع إلى سنة ١٧٨٦ عندما اكتشف عالم اللغات الانجليزى وليام جونز قرابة بين اللغات اللاتينية والجرمانية والسانسكريتية . . فاعتقد أن الشعوب التى تتكلم بتلك اللغات ترتبط مع بعضها البعض بعلاقات من القربى . . أما كلمة « آرى » فترجع إلى عالم اللغات ماكس موللر الذى توفر سنة ١٩٠٠ ، ووضع كلمة

« آرى » لأنه اعتقد أن السلالة المسماة بالهندية الأوروبية ، كانت تقطن منطقة أريانا فى وسط آسيا . . ثم هاجر الآريون جنوبا وغربا . . ونقلوا معهم لغتهم وحضارتهم أينما ذهبوا . لقد هاجروا إلى شمال أوروبا ومنها إلى أمريكا الشمالية .

ومع تقدم العلم فى عصرنا الحاضر ، تبين أن تشابه اللغات الذى تحدث عنه وليام جونز ، لا يعود إلى صلة القربى بين الشعوب المتحدثة بها ، ولكن يعود إلى الانتشار الثقافى بين الشعوب واتصالها ببعضها البعض .

وبذلك صارت فكرة السلالة الآرية الممتازة ، أسطورة تاريخية لا أساس لها من الصحة . . وقال عالم اللغات سايس Sayce فى كتابه (علم اللغة) أن التشابه فى اللغة ، لا يدل على شىء أكثر من الاتصال الاجتماعى والانتشار الثقافى بين الشعوب . .

وتبين للعلماء فى عصرنا هذا بعد مزيد من البحث والدراسة . . وبناء على التقدم العلمى ، أنه لا توجد سلالات أرقى من سلالات أخرى ، وأقدر على غيرها فى صنع الحضارة . . وأن كل الاختلافات بين الشعوب ، هى اختلافات وراثية خِلْقية ، بسبب حدوث طفرات وراثية توارثتها الأجيال بعد ذلك . . وساعد على وجودها فى سلالات بعينها ، أو شعوب بعينها ، عدم التزاوج مع غيرها من السلالات والشعوب الأخرى . .

ولاشك أن هناك فوارق ثقافية وحضارية هائلة ، بين الأفراد فى تلك الشعوب التى تنتمى إلى نفس السلالة ، مما يدل على أن السمات السلالية ، لا دخل لها فى درجة الذكاء . . ولا فى درجة القدرة على صنع الحضارة . . ولقد علمنا من تاريخ الشعوب ، أن شعوبا قادت العالم ، وحضارات سادت غيرها من الحضارات ، قد باءت بعد ذلك وانتهت . . وعكس ذلك صحيح . .

ولو استمع الناس إلى الحق واليقين فى القرآن والحديث النبوى ، ما حدثت كل هذه الاختلافات فى الآراء . . وما حدثت المآسى والحروب ، التى أشعلت

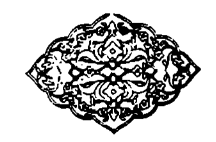
نيرانها بسبب نعرات عنصرية ، واعتقاد مخطىء ، بتمايز أجناس البشر عن بعضها البعض وتفوق أحدها عن الآخر .

ونقرأ فى سورة الحجرات ١٣ قول الله عز وجل : ﴿ يَاأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ .

الخطاب فى الآية الكريمة ، للناس جميعا ، وللبشر كافة بكل سلالاتهم . . فهم جميعا سواء ، ولا يتفوق أحدهم عن الآخر ، إلا بالتقوى والعمل الصالح والقيم المثلى .

وروى الإمام أحمد عن أبى نضرة أن رسول الله ﷺ قال فى خطبة الوداع : (ياأيها الناس ألا إن ربكم واحد وأن أباكم واحد . إلا لا فضل لعربى على أعجمى ، ولا لأعجمى على عربى ، ولا لأحمر على أسود ، ولا لأسود على أحمر إلا بالتقوى) .

لو استمع الناس إلى القرآن والحديث النبوى ما أخطأوا التفكير . . وما حدثت بالتالى الكثير من المآسى فى تاريخ الإنسان فى الماضى والحاضر ، والتى قامت على التفرقة العنصرية ، بين السلالات البشرية ، بدون أساس علمى صحيح ، أو دليل منطقى سليم .



اختلاف الألسنة والألوان بين البشر

لما جاء العصر الحالى وما به من تقدم علمى كبير ، تأكد للعلماء أن اختلاف العوامل الوراثية بين الشعوب تقوم على قوانين ثابتة . . وأنه لا علاقة للصفات الخِلْقية الوراثية بتفوق سلالة على سلالة أخرى . . ولا لشعب على شعب آخر . . وتبين للعلماء أن الاختلاف بين الشعوب فى درجة التقدم العلمى والحضارى ، هو بسبب الاختلاف فى درجة الثقافة والتعليم ، ودرجة الانتشار والتبادل الثقافى بين الشعوب . . وأنه ليس هناك سلالة من البشر أكثر رقيا وأكثر نقاء من سلالة أخرى .

ولقد ظلت علوم البشر عن الوراثة ، بدون أساس علمى صحيح حتى أواخر القرن الماضى ، عندما اكتشف جريجور مندل الأسس العلمية الصحيحة فى علم الوراثة بناء على دراسته لبعض النباتات . ولقد توصّل إلى أن الصفات الوراثية تنتقل من جيل إلى جيل ، بواسطة عوامل وراثية فى الخلايا ، فى نظام وراثى ثابت ، وقانون وراثى محكم .

وفى سنة ١٨٩١ اكتشف العالم الألمانى هنكنج أن العوامل الوراثية نوعان : ذاتية وجنسية . . وفى سنة ١٩٠٣ اكتشف العلماء والتر وسيتون وبوفرى أن داخل الخلايا الحية صبغيات (كروموسومات) تحمل العوامل الوراثية . . واستمر البحث والدراسة حتى سنة ١٩٣٤ عندما توصّل العالم توماس مورجان بأمريكا ، إلى دراسة دقيقة للكروموسومات الموجودة فى الغدد اللعابية لذبابة الفاكهة ، نظراً لكبر حجمها وسهولة رؤيتها ودراستها . . واكتشف أن العوامل الوراثية مصفوفة ومرتبة على الكروموسومات . . وفى سنة ١٩٥٣ استطاع واتسون وكريك وغيرهما ، أن يتعرفوا لأول مرة على التركيب الكيميائى للكروموسومات فى الخلية الحية . . وفى سنة

١٩٦١ استطاع كل من ماتياى ونايرنبرج ، أن يفتح طريق البحث العلمى لمعرفة التركيب الثلاثى للعامل الوراثى . .

أما عدد الكروموسومات فى خلية الإنسان فلم تعرف إلا حديثا . . ففى سنة ١٩١٢ اعتقد العلماء مثل وينى ووتر أن عدد الكروموسومات فى الإنسان سبعة وأربعون كروموسوما ، وفى سنة ١٩٢٠ قال العالم بينتر : إنها ثمانية وأربعون ، نظراً لأن عددها فى خلايا القرد الشمبانزى ، أقرب القرود شبها بالإنسان ، ثمانية وأربعون . . وكان الاعتقاد بناء على نظريات أصل الأنواع والتطور أو النشوء والارتقاء ، أن الإنسان والقرد هما من أصل واحد ومن نوع واحد من الخلق ، فلابد أن يكون عدد الكروموسومات فى خلية الإنسان ثمانية وأربعون كذلك . . وظل هذا الاعتقاد حتى سنة ١٩٥٦ عندما اكتشف علماء كثيرون ، منهم ليفان وفورد وهامرتون ، أن يدرسوا الكروموسومات فى الخلية البشرية دراسة علمية دقيقة . . فتوصلوا إلى حقيقة جديدة لم تكن معروفة من قبل سنة ١٩٥٦ ، وهى أن عدد الكروموسومات فى خلية الإنسان ستة وأربعون ، وليست ثمانية وأربعون مثل القرد الشمبانزى . . وتأكد لدى العلماء حينئذ ، أن الإنسان لم ينحدر من سلالة القرد كما كان اعتقاد علماء أصل الأنواع والتطور من قبل . .

ومن الصفات الوراثية التى تنتقل من جيل إلى جيل ، صفة لون الجلد . . وهى تنتقل مثلها مثل باقى الصفات الوراثية . . بناء على نظام فى بالغ الدقة والاعجاز ، مما هو فوق تصور العقل البشرى . . ومما يقدم دليلا على قدرة الخالق البارىء المصور تبارك وتعالى . . ونقرأ عن ذلك سورة النحل ١٣ قول الله عز وجل : ﴿ وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِى الْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴾ وفى سورة الروم ٢٢ يقول الله عزوجل : ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِلْعَالِمِينَ ﴾ .

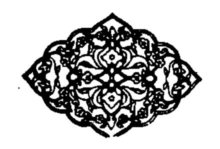
لقد قرن الله تعالى خلق السماوات والأرض ، وما فيهما من إعجاز فى الخلق ، ودقة النظام ، وإبداع التصوير . . قرن هذه الآية العظيمة فى الخلق بآية اختلاف

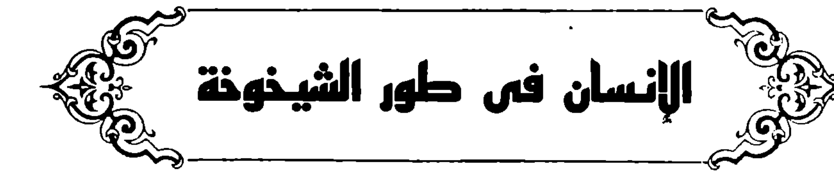
اللغات واختلاف الألوان فى شعوب الأرض وسلالات البشر . . مما يدل على أنهما آيتان تتساويان فى الإعجاز فى الخلق ، والإبداع فى الصنع . وفى سورة فاطر ٢٧ ـ ٢٨ يحدثنا الله تعالى عن الإعجاز فى خلق اختلاف الألوان ، مما لا يدرك أبعاد مقدرة الله فيه ، إلا العلماء المتخصصون يقول تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ● وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَٰلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴾

إن تعدد الألوان فى المخلوقات جميعاً ، هو سر جمالها ورونقها وبهائها . ولا يترتب على اختلاف لون جلد الإنسان ، أىُّ ميزة عقلية أو ذهنية أو حضارية فيه . . فلون الجلد صفة من الصفات الوراثية . . ولا علاقة بينها وبين ذكاء الإنسان . . ولا عن استعداده الفطرى للتعلم ، ولبناء حضارة ، أكثر من إنسان آخر بلون آخر .

إن التفرقة العنصرية بناء على لون الجلد خطأ كبير . . وأكذوبة كبرى . . ولا يعترف الإسلام بذلك مطلقا . . فلقد قرر رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ الحق والصدق واليقين فقال : (لا فضل لعربى على أعجمى ، ولا لعجمى على عربى ، ولا لأحمر على أسود ، ولا لأسود على أحمر إلا بالتقوى) ، ولقد كان بلال بن رباح ، وعمار بن ياسر من كبار الصحابة ، ومن المقربين لرسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ، كانا ذا جلد أسود اللون . . ولم يقلل لون جلدهم من علو شرفهم ، وارتفاع شأنهم عند الله ورسوله . . وعند المسلمين كافة . .

فاختلاف ألوان البشر ، آية من آيات الله فى خلقه ، وليست امتيازاً لأحد ، ولا عيبا لإنسان . . ولا مقياسا لفهم أو ذكاء .





الإنسان فى طور الشيخوخة

الشيخوخة إحدى المراحل الطبيعية فى دورة حياة الإنسان ، وكل كائن حى . ويمضى الإنسان الربع الأول من حياته الدنيا فى نمو وزيادة ، بينما يمضى الأرباع الثلاثة الباقية من حياته ، فى عمليات اضمحلال تدريجية ومستمرة . . ونحن نعلم أن الجسم مكون من خلايا . . تموت وتبنى مكانها خلايا جديدة ، أى إن الجسم فى حالتى هدم وبناء ، تعقبهما عمليتا هدم وبناء . . وذلك فى دورات يعقب بعضها بعضا . .

وإذا تجاوزت سرعة البناء سرعة الهدم حدث نمو . . وإذا تجاوزت سرعة الهدم سرعة البناء حدثت الشيخوخة . .

وهناك أجسام لا تشيخ إلا بعد عمر طويل . . وهناك أجسام تشيخ فى سن مبكرة فليس هناك عمر محدد للشيخوخة . . لأن الشيخوخة ليست متوقفة على العمر وحده . . وإنما هى متوقفة على الزمن البيولوچى فى كل خلية من خلايا الجسم . . وبين عمر الإنسان والزمن البيولوچى فى خلايا الجسم ارتباط كبير . وللشيخوخة درجات كثيرة . والإنسان فى أول أطواره ، تكون فى جسمه بقية من قوة ، يستطيع الإنسان بها أن يقوم بشئون نفسه . . وقد يستمر هذا الطور سنوات ، وفى الطور الثانى من الشيخوخة يدب الضعف فى البدن . . ويهاجم العجز البدن فى كل مكان . . ويقوم الإنسان بشئون نفسه فى جهد ومشقة . .

وإذا امتد به العمر ، وقع فى طور الشيخوخة المتأخر ، الذى لا يستطيع الإنسان فيه أن يقوم بشئون نفسه . . ولا أن يدرك ويعقل ، كما كان يدرك أو يعقل من قبل . . وهذا الطور المتأخر يسمى أرذل العمر . . وهو طور من الشيخوخة . . شاق وصعب . . لا يتمناه أحد لنفسه قط ، وقد علمنا سيدنا رسول ـ ﷺ ـ أن نستعيذ من

أرذل العمر كما فى دعائه الذى رواه البخارى (اللهم إنى أعوذ بك من الجبن ، وأعوذ بك من أن أُرد إلى أرذل العمر ، وأعوذ بك من فتنة الدنيا ، وأعوذ بك من عذاب القبر) وقوله - ﷺ - « أُرد » فيه معنى العودة إلى الضعف من جديد . . فالإنسان يُخلق ضعيفاً لا يعلم من أمور دنياه شيئا . . ويُرد فى أرذل العمر إلى الضعف ولا يعلم من بعد علم شيئاً . .

وعلمنا النبى - ﷺ - أيضاً أن نستعيذ من الشيخوخة بكل أطوارها ، كما روى البخارى عن أنس رضى الله عنه قال كان النبى - ﷺ - يقول :

(اللهم إنى أعوذ بك من العجز والكسل ، وأعوذ بك من الجبن ، وأعوذ بك من الهرم) . الخ الحديث الشريف

والشيخوخة تطور طبيعى وتغير بيولوچى فى الجسم ، يؤدى إلى درجات متتالية من الضعف والوهن . . وتصاحبها تغيرات فى أعضاء الجسم كثيرة ... ودرجات من الضعف شتى . .

وتاريخ جسم الإنسان فى الحياة الدنيا يمر بأربع مراحل : الخلق ، والنمو ، والشيخوخة ، والموت إنها صفاتٌ موروثة ينظمها ويهيمن عليها نظام وراثى ، ويكمن النظام الوراثى فى نواة كل خلية حية ولكن هذا النظام كله ، يتأثر بعوامل خارجية ، تبطىء من سرعته أو تزيد مثل تأثيرات البيئة أو الأمراض الطارئة . .

فالإنسان الذى يقوم بأعمال شاقة ، أو تحت أزمات نفسية متعددة ، سنوات طويلة ، يشيخ جسمه قبل إنسان يعيش حياة ناعمة مرفهة ، مطمئن البال ، مستريح الأعصاب . . وكذلك الإنسان الذى تداهمه الأمراض زمنا طويلا ، يشيخ جسمه قبل الإنسان السليم .

وعلى أية حال ، فإن الوظائف البيولوچية فى الخلية تتضاءل مع تقدم العمر . . وفضلا عن كل ذلك . . فهناك تفاوتٌ كبيرٌ بين الناس فى درجة المعاناة من الشيخوخة . . فالبعضُ يعانى أكثر من الآخر . . إلا أن الذى يحدث فى الجميع انخفاض مستمر فى القدرة الوظيفية للجسم .

وماذا يحدث لأعضاء الجسم المختلفة فى الشيخوخة ؟

العضلات تعانى فى الشيخوخة ، فالعضلة مكونة من خيوط عضلية كثيرة . . مثل حزمة من الخيوط . . كل خيط لا يزيد قطره على ١/١٠ مللى متر . . وفى كل خيط نظام دقيق وعجيب . . من شأنه تقلص وارتخاء العضلة . . بقوة وسهولة . .

ومع تقدم العمر ، يضعف ذلك النظام داخل الخيوط العضلية فتتصلب العضلة . . وتتضاءل قوتها ويقل حجمها . . ويحدث الضعف العضلى . وفى الطفولة تكون العضلات ضعيفة . ومع تقدم العمر تنمو وتكبر وتقوى . وفى الشيخوخة تعود وتضعف . وتمر على العضلات فى الجسم أربع مراحل : الخلق ، والنمو ، ثم القوة ، ثم الضعف . . أى ضعف ثم قوة ثم ضعف وكل أعضاء الجسم تمر أولاً بالضعف ثم بالقوة ثم بالضعف مرة أخرى فى الشيخوخة ، ونقرأ عن هذه الحقيقة فى سورة الروم (٥٤) فى قول الله عز و جل :

﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ ﴾ .

وماذا عن شعر الجسم ؟ يتغير الشعر مع تقدم العمر . . وللعوامل الوراثية دور كبير فى ذلك . . فالشعر يكون فى صغر السن أكثر مرونة ، وأكثر قوة وكثافة أما فى الشيخوخة فيصير أقل مرونة ، وأقل قوة ، وأقل كثافة ، وقد يتساقط وخاصة فى الرجال . . ويبيض الشعر ويشتعل الرأس شيبا . . كما فى قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً ﴾ .

وماذا عن العظام فى الجسم ؟ تتغير العظام والمفاصل مع تقدم العمر . . وهذه تغيرات حتمية لا يمكن تفاديها . . فتتآكل الغضاريف فى المفاصل ، وتصبح العظام أقل مرونة ، وأقل قوة فتنكسر لأوهن الأسباب . . فليس وهن الشيخوخة فى العضلات فحسب ، ولكنه يصيب العظام أيضاً . وجاء ذكر هذه الحقيقة فى الحديث عن النبى زكريا عليه السلام فى قول الله تعالى : ﴿ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا ﴾ .

وذكر العظم ووصف بالوهن ، للدلالة على الضعف فى الشيخوخة ، لأن العظم هيكل الجسم وأصل بنائه ، فإذا تداعى ووهن ، تداعى ووهن باقى الجسم .

واشتعل الرأس شيبا : وهذا من أحسن الاستعارة فى اللغة . والمعنى انتشار الشيب فى الرأس انتشار النار فى الهشيم .. فأخرج اشتعال النار مخرج الاستعارة ، ثم اسند الاشتعال إلى مكان الشعر ومنبته وهو الرأس ، أخرج الشيب مميزاً .

ولا شك أن تصلب شرايين الجسم من أهم الأسباب التى تحدث الشيخوخة . . فإذا تصلبت الشرايين ضاقت سعتها . . وبالتالى قلت كمية الدم التى تصل أجهزة الجسم المختلفة . . ماذا تكون النتيجة ؟

النتيجة أن أجهزة الجسم مثل المخ والقلب والكلى والعضلات وغيرها تضعف قواها .. وتقل كفاءتها .. وإذا حدث تصلب بالشرايين فى سن مبكرة ، حدثت شيخوخة مبكرة .. وإذا ظلت الشرايين فى صحة جيدة ، طالت فترة شباب الإنسان ، بالرغم من مرور الزمن .

وفى أرذل العمر ، يقل الدم الواصل إلى أعضاء الجسم بصورة كبيرة .. فتضعف الذاكرة ، ويضعف التفكير ، ويقل الاستيعاب الفكرى ... وينتهى الأمر بالإنسان إن طال به العمر ، إلى حالة العته الشيخوخى .. وفيها لا يعلم الإنسان من أمور الدنيا حوله إلا شيئا قليلا .. وتقرأ عن هذه الحقيقة فى سورة الحج (٥) .

إنها آية كريمة تمر بتاريخ الإنسان فى الحياة الدنيا مروراً سريعاً ، ولكنه مرور محكم ودقيق .

استعرضت آية سورة الحج تاريخ الإنسان فى إيجاز محكم فى قوله تعالى ﴿ يَاأَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِن بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا ﴾ .

ففى أرذل العمر ، وهى المراحل المتأخرة فى حياة الإنسان فى هذه الدنيا ، يصل الإنسان إلى العته الشيخوخى فيقل إدراكه ويقل استيعابه . . وقد يفقد القدرة على العلم بما يدور حوله من أمور . . كما قال تعالى ﴿ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا ﴾ وكما قال فى سورة يس : ﴿ وَمَن نُّعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي الْخَلْقِ ﴾ ومن هنا نعلم لماذا كان سيدنا رسول الله ﷺ يدعو الله تعالى ويعلمنا أن ندعو وأن نقول (اللهم إنى أعوذ بك من أن أرد إلى أرذل العمر) .

وفى سورة النحل/ ٧٠ يقول الله عز وجل :

﴿ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّاكُمْ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴾ .

وأرذل العمر كما علمنا ، هى المراحل المتأخرة من الشيخوخة ، والتى فيها يصير الإنسان إلى نقص العقل ، وإلى العتة والخرف ﴿ لِكَيْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئًا ﴾ أى يرجع إلى حالة الطفولة ، فلا يعلم ما كان يعلم قبل من الأمور .

وجاءت حقيقة رد الإنسان ﴿ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئًا ﴾ فى سورة النحل ، فى سياق الحديث عن أطوار خلق الإنسان فى الحياة الدنيا ، وقدرة الله تعالى عليه ، وعلم الله تعالى بكل شئونه .

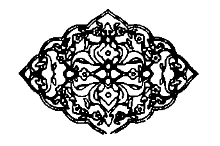
وجاء ذكر نفس الحقيقة فى سورة الحج ، فى معرض الحديث عن البعث بعد الموت ، فساق أطوار خلق الإنسان ، من أول خلقه نطفة ، إلى شيخوخته فى الدنيا وموته بعد ذلك .. ساق دورة الموت والحياة هذه دليلا على حقيقة البعث بعد الموت .. وفى الشيخوخة تحدث تغيرات فى الجسم .. فتصير المرأة فى شيخوختها عقيما ، ويصير الرجل غير قادر على الإنجاب .

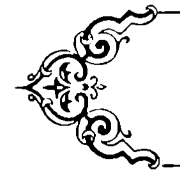
فقرأ عن ذلك فى الحديث عن امرأة النبى إبراهيم عليه السلام فى سورة هود (٧٢) فى قول الله تعالى :

﴿ وَامْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَـٰقَ وَمِن وَرَاءِ إِسْحَـٰقَ يَعْقُوبَ . قَالَتْ يَاوَيْلَتَى أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَـٰذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَـٰذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ ﴾ .

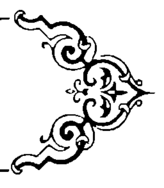
ونقرأ فى سورة مريم ٧ ـ ٩ قول الله تعالى :

﴿ يَازَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَا لَمْ نَجْعَل لَّهُ مِن قَبْلُ سَمِيًّا • قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِى غُلَامٌ وَكَانَتِ امْرَأَتِى عَاقِراً وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا • قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَىَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا ﴾ .





هل لشيخوخة الجسم علاج



لا شك أن الشيخوخة مرحلة من العمر تزعج الإنسان المقبل عليها ، وتكدر الإنسان الذى هو فيها كما عبر عن ذلك الشاعر فقال :

ذهب الشباب فماله من عودة ∴ وأتى المشيب فأين منه المهرب

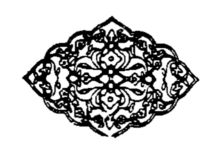
ولطالما أجرى الإنسان على مر العصور الأبحاث والتجارب ، وبذل الكثير من المحاولات فى سبيل العثور إلى علاج يطيل فترة الشباب ، أو يقلل من عجز الشيخوخة ووطأتها على الجسم . . ولكن هيهات . . فلقد باءت كل المجهودات والمحاولات بالفشل . . وذهبت كل التجارب والأبحاث سدى ، ولم تكن تلك المحاولات منذ عهد قريب فحسب . . بل كانت منذ فجر التاريخ . . فلقد عثر الباحثون فى أساطير المصريين القدماء ، وأساطير الإغريق والهنود القدماء ، على محاولات كانت تبذل فى تلك العصور القديمة لاستعادة الشباب . . وكان معظمها باستخدام السحر والشعوذة تارة ، وباستعمال الأدوية المختلفة تارة أخرى . . بحيث صار ذلك المجهود وتلك المحاولات ، تمثل جانباً من تراث الأمم والشعوب .

وأخيراً بعد طول بحث وكثرة جهد ، اعترف العلماء أن الشيخوخة طور حتمى فى تاريخ الإنسان فى هذه الدنيا ، لا مفر منه ، ولا علاج له ، ولا دواء . . ولابد لجسم الإنسان من أن يمر فيه إن أخطأته المنايا وطال به العمر . . ومهما حاول الإنسان فلن يجد له من الشيخوخة مفراً . . ولن يجد له منها مهربا . . إن الذى يقرأ التاريخ يجد أن الناس على مر العصور ، قد بذلوا الكثير من الوقت والمال والجهد ، فى محاولة استعادة الشباب أو تأخير حدوث الشيخوخة ، ولو درس أولئك الناس القرآن والسنة ، لوفروا على أنفسهم عناء البحث عن دواء للشيخوخة دون جدوى . ففى

سورة يس ٦٨ يقول الله عزوجل : ﴿ وَمَن نُّعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِى الخَلْقِ أَفَلا يَعْقِلُونَ ﴾ .

ونكس الشىء ، أى قلبه على رأسه فانتكس ، وقال قتادة : المعنى إن الإنسان إذا طال به العمر ، يصير إلى حال الهرم ، الذى يشبه فيه حال الصبى من الضعف وقلة الحيلة ، وحاجته إلى الآخرين .

ونقرأ فى السنة النبوية عن هذه القضية بيانا وعلما . . فقد أخرج الترمذى وأبو داود عن زياد بن علاقة ، عن أسامة بن شريك قال : قالت الأعراب يارسول الله ألا نتداوى ؟ فقال : نعم عباد الله تداووا فإن الله لم يضع داءً إلا ووضع له دواءً إلا داءً واحداً . قالوا يارسول الله ما هو ؟ قال الهرم (أى الشيخوخة) ، وروى الترمذى عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال : (مثل ابن آدم وإلى جنبه تسعة وتسعون منية ، إن أخطأته المنايا وقع فى الهرم حتى يموت) .



طور الشيخوخة فى الإنسان
مشكلة اجتماعية

كان الحديث من قبل عن الشيخوخة كعملية بيولوجية ، وطور حتمى فى تاريخ الإنسان فى حياته الدنيا ، لابد أن يمر به إن طال به العمر . . وفى العصور الحديثة صارت الشيخوخة مشكلة اجتماعية . . فالإنسان فى هذا الطور من تاريخ حياته ، يعلنه المجتمع الذى يعيش فيه ، أنه صار شيخا ضعيفا . . ويفرض عليه قيودا معينة ، منها الحكم عليه بالتقاعد عن عمله ، والامتناع عن ممارسة نشاطه اليومى الذى اعتاد عليه . . وبالتالى إجباره على أن يحيا على نظام آخر ، يعتزل المجتمع ، ويعتزله المجتمع . . فيشعر الإنسان الذى وصل إلى سن التقاعد ، أنه يعيش حياة تتسم بالوحدة . . وأن المجتمع قد عزله ، ولم يعد راغباً فى خدماته ونشاطه . . ويعلنه أنه لم يعد صالحا للقيام بعمل مفيد ، وتكون النتيجة الحتمية لذلك ، أن يصاب الإنسان فى هذا الطور من حياته بالإحباط النفسى .

ولم تظهر الشيخوخة كمشكلة بهذا الحجم ، إلا بعد الثورة الصناعية فى العصور الحديثة ، وما حدث فيها من الاستغناء عن العمال الذين وصلوا إلى الستين سنة من العمر . . واعتبر رجال الصناعة أن العامل فى هذا العمر ، قد فقد جزءا كبيراً من قدرته عن العمل ، فينبغى عليه أن يترك مكانه لمن هو أقدر منه على العمل والعطاء .

أما المجتمع القبلى فى البلاد النامية ، فإنه يعطى الأهمية الكبرى للمسنين . . ويضفى عليهم درجة عالية من الاحترام . . مما ليس له نظير فى المجتمعات الصناعية فى عصرنا الحاضر . . ويعتبر المسنين قادةً وحكماء . . ولا تستقيم أمور المجتمع إلا بهم . . ولا تصلح أحوال المجتمع إلا بآرائهم وخبراتهم وتوجيهاتهم .

لذلك فالشيخوخة فى المجتمعات القبلية من أسعد أطوار العمر . . على العكس تماما من الحال فى المجتمعات الصناعية المتقدمة ، حيث الشيخوخة من أسوأ أطوار العمر . . وأكثرها بؤساً . .

إن المجتمعات الصناعية المتقدمة ، لم تحل مشكلة الشيخوخة حلا صحيحاً . . فالإنسان المسَن فى تلك المجتمعات ، يشعر أن العالم من حوله قد تغير وصار أضيق مما كان . . ولم يعد الإنسان المسن حراً فى كل ما يريد من تصرفات ، فالمجتمع يفرض عليه قيوداً تساهم إلى حد كبير فى عزله عن الناس . . فيشعر أن المجتمع لم يكن له وفيا ، فلقد ظلمه وأساء إليه . . والشيخوخة فى جسم الإنسان ـ كما تحدثنا من قبل ـ لا تتوقف على العمر وحده ، فكم من إنسان فى الأربعين من عمره وهو يعانى من الشيخوخة . . وكم من إنسان من سن الستين ، وهو لا يزال قويا ونشطا وسليم الصحة . . فالحكم على الإنسان بالتقاعد عن عمله فى سن معينة ، حكم مخطىء ، لأنه يقوم على أساس غير صحيح . . هذا بالإضافة إلى أن الإنسان فى شيخوخته ، لديه حصيلة كبيرة من التجارب والخبرات التى تفيد المجتمع فائدة كبرى . . لذلك فإن الحكم بتقاعد الإنسان فى سن معينة بطريقة عشوائية ، إهدار لكثير من الطاقات العلمية . . والقدرات العقلية . . وحرمان المجتمع من كثير من الخبرات ، التى كان يمكن أن يحصل منها على فوائد جمه ، ولا تكاد تحصى .

ففى المجتمعات الصناعية المتقدمة ، إهمال للمسنين ، فى الوقت الذى فيه يضفون كل الاهتمام للطفولة . . وليس المجتمع فحسب . . بل إن نظام الحياة فى المجتمعات الصناعية جعل الأولاد يبتعدون عن آبائهم المسنين . . فبعد أن كانوا حول آبائهم عند حاجتهم لهم . . تركوا آباءهم فى شيخوختهم ، وابتعدوا عنهم ، فلا يرونهم إلا نادراً . . وهذا شكل من أشكال عقوق الأبناء فى المجتمعات الصناعية المتقدمة ، يسبب للآباء والأمهات ألماً نفسيا شديدا ، يضاف إلى آلام نفسية أخرى سببها لهم نكران المجتمع لهم ، وعدم وفائه لهم . . فالإنسان فى المجتمعات

الصناعية يعيش فى وحدة قاسية وعزلة مؤلمة . . بين عقوق الأبناء . . وبين نكران المجتمع لهم . . وحرمانه لهم من القيام بأى دور إيجابى فى الحياة العامة . .

أما المجتمعات القبلية ، فتقف من الطفولة والشيخوخة موقفين متضادين ، فلا تهتم لطور الطفولة اهتماما يذكر . . بينما تبذل كل الاهتمام للشيخوخة . . فالمجتمعات القبلية والمجتمعات الصناعية فى هذه القضية على طرفى نقيض . . والأمر فى كلا المجتمعين مسرف فى جانب ، ومقصر فى جانب آخر . . لذلك فهو فى حاجة إلى إعادة النظر ، وإلى تصحيح الأوضاع ، لإعطاء كل من طور الطفولة وطور الشيخوخة حقّه من الرعاية والاهتمام . .

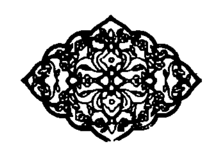
أما فى المجتمع الإسلامى : فالأمر مختلف تماما ، فلا إسراف هنا ولا تقصير هناك ، بل عدالة مطلقة لكل طور من أطوار تاريخ الإنسان فى حياته الدنيا . . والشيخوخة من أسعد فترات العمر واكثرها طمأنينة وارتياحا . . فلا يفرض المجتمع الإسلامى على الإنسان المسن أن يتقاعد عن عمله . . بل لكل إنسان الحق فى أن يعمل طالما كانت له القدرة على العمل والعطاء . ويمنح المسنين كل اهتمام ورعاية واحترام ، فى الوقت الذى يعطى الإنسان فى طور طفولته كل اهتمام ورعاية وعطف . . ويعطى طور الشباب حقه فى الرعاية والاهتمام وحسن التوجيه . . فالإسلام يمنح الإنسان فى كل طور من أطوار حياته ، حقه كاملا فى الرعاية والاحترام بدون إسراف وبدون تقصير . .

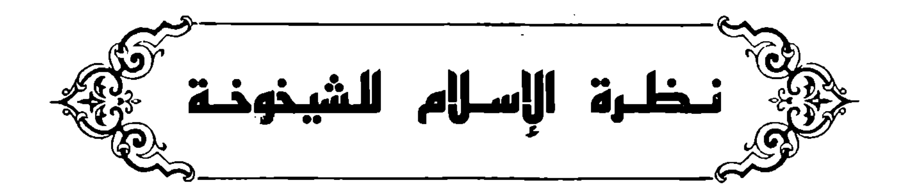
ولقد قضى الله عز وجل أن يحترم الأبناء آباءهم ويعطوهم حقهم كاملا فى الاحترام والتوقير والاحسان . . فقال عز وجل فى سورة الإسراء ٢٣ ـ ٢٥ .

﴿ وَقَضَى رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلاَهُمَا فَلاَ تَقُل لَّهُمَاَ أُفٍّ وَلاَ تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلاً كَرِيماً • وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيراً ﴾ فقرن القرآن الكريم وجوب الإحسان للوالدين ، بوجوب العبادة لله تعالى . . وقرنت السنة النبوية

عقوق الوالدين ، بالشرك بالله عز وجل . . فقد روى الترمذى أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال : (الا أحدثكم بأكبر الكبائر ، قالوا : بلى يارسول الله قال : الإشراك بالله ، وعقوق الوالدين ، وشهادة الزور) .

فالإسلام يأمر بالاهتمام بالطفولة والشيخوخة معا . . مما ليس له نظير فى أى مجتمع غير إسلامى . . وروى الترمذى عن عمر بن شعيب عن أبيه عن جده أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال : (ليس منا من لم يرحم صغيرنا ، ويعرف شرف كبيرنا) .





نظرة الإسلام للشيخوخة

الشيخوخة طور من أطوار تاريخ الإنسان فى حياته الدنيا ، يمثل مشكلة اجتماعية فى العالم الغربى الصناعى . . فيقف المجتمع من المسنين موقفا سلبيا ، ويكتفى بتقديم المساعدات والمعونات . . وبناء الملاجىء . . ويعزل المسنين عن الحياة العامة ، ويفرض عليهم وحدة قاسية . . وعزلة تسبب للكثيرين منهم الإحباط النفسى . . وليس المجتمع فحسب ، بل الأولاد أيضاً . . فهم يبتعدون عن آبائهم . . ولا يقومون بواجباتهم تجاههم . . وعقوق الوالدين أمر شائع فى تلك المجتمعات .

أما فى المجتمع الإسلامى فالأمر مختلف تماما . . فالشيخوخة من أسعد فترات العمر ، ويكافىء الله تعالى فيها عبده المسلم . فقد روى الترمذى أن رسول الله ﷺ قال : (من شاب شيبة فى الإسلام ، كانت له نوراً يوم القيامة) .

وعنه ﷺ أنه قال : (إن الله يستحى أن يعذب عبداً شاب فى الإسلام) .

وروى الإمام أحمد عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده أن رسول الله ﷺ قال : (لا تنتفوا الشيب فإنه نور المسلم . ما من مسلم شاب شيبة فى الإسلام إلا كتب له بها حسنة ، ورفع بها درجة ، أو حط عنه بها خطيئة) .

فالشيخوخة ليست نقمة ولكنها نعمة ونور ، تكتب بها الحسنات وتحط عن الإنسان بها الخطايا .

وروى الإمام أحمد عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : (ألا أنبئكم بخيركم ؟ قالوا بلى يارسول الله قال : خياركم أطولكم أعماراً وأحسنكم أعمالا) .

وفى رواية أخرى (خياركم أطولكم أعمارا وأحسنكم أخلاقا) .

وروى البخارى عن أنس رضى الله عنه قال : قالت أمى : يارسول الله خادمك أنس ادع الله له . فقال النبى ﷺ : (اللهم أكثر ماله وولده وأطل حياته واغفر له) .

وقال أنس : فوالله إن مالى لكثير ، وإن ولدى وولد ولدى ليتعادون نحو المائة .

وقال النووى : كان أنس أكثر الصحابة أولاداً . وجاء فى الأثر أن أنس رضى الله عنه ، مات عن مائة وسبع من السنين .

ولو لم يكن فى طول العمر خير ، ما دعا به رسول الله ﷺ ربه لأنس . ولو لم يكن فى الشيبة خير ، ما كانت للمسلم نورا يوم القيامة . . وما اكتسب بها المسلم الكثير من الحسنات .

هذا جزاء الشيخوخة عند الله ؟ فما واجب الشيخوخة على الأبناء ؟

لقد أوجب الله تعالى على الأبناء أن يوقروا آباءهم إذا بلغوا الكبر ، ويخفضوا لهم جناح الذل من الرحمة . كما فى سورة الإسراء ٢٣ - ٢٥ فى قوله الله عزوجل :

﴿ وَقَضَى رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إلاَّ إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلاَهُمَا فَلاَ تَقُل لَّهُمَا أُفٍّ وَلاَ تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُما قَوْلاً كَرِيماً ۝ وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيراً ﴾ .

﴿ وَقَضَى رَبُّكَ ﴾ : هو قضاء أمر . . والمعنى أمر ربك وألزم وأوجب .

﴿ أَلاَّ تَعْبُدُوا إلاَّ إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً ﴾ أى ألا تعبدوا إلا إياه وأن تحسنوا بالوالدين إحسانا . . وأكد الله تعالى فى التوصية بالوالدين فى الكبر ، حتى أنه تعالى قرن الإحسان بهما بتوحيده . . وقضى بالأمرين معا .

﴿ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلاَهُمَا ﴾ : (إما) أصلها «إن ما» «إن» الشرطية و«ما» تأكيد لها وأدغمت النون فى الميم ، فصارت «إما» وقوله تعالى

«يبلغن» النون مؤكدة للفعل ، فلم يقل «إن يبلغ عندك الكبر أحدهما أو كلاهما» ولكن الله تعالى أكد الشرط ، فقال «إما» وأكد الفقل فقال «يبلغن» فقال تعالى : ﴿ **إما يبلغن عندك الكبر أحدهما أو كلاهما فلا تقل لهما أف ولا تنهرهما وقل لهما قولا كريما** ﴾ وقوله (عندك) أى إن يكبرا ويشيخا . . وكانا كلا على ولدهما لا كافل لهما غيره . . فهما عنده فى بيته وفى كنفه ، وذلك أشق عليه وأدعى إلى التحمل والصبر . . وربما بدر منهما ما يضايقه . . فهو مأمور بأن يستعمل معهما أقصى درجات اللين والاحتمال والاحترام ، فلا يقول «إف» فضلاً عما يزيد على ذلك . . و«إف» صوت يدل على الضجر . . وهكذا قضى الله تعالى على الإنسان الإحسان لوالديه فى كبرهما وضيق الأمر عليه . . حتى أنه عز وجل لم يتجاوز للابن عن أدنى كلمة ، أو أقل صوت يفلت منه يدل على الضجر من والديه ، حتى ولو كان الأمر يستدعى الضجر .

وروى الإمام على بن أبى طالب كرم الله وجهه أن رسول ﷺ قال :

(لو علم الله من العقوق شيئاً أدنى من أف لذكره فليعمل البار ما شاء أن يعمل فلن يدخل النار ، وليعمل العاق ما شاء أن يعمل فلن يدخل الجنة) .

وقوله تعالى : ﴿ **ولا تنهرهما وقل لهما قولا كريما** ﴾ أى لا تزجرهما عندما يبدر منهما ما لا يعجبك ، ولكن قل لهما قولا كريما .

﴿ **وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ** ﴾ أى اخفض لهما جناحك الذليل أو الذلول مبالغة فى التذلل والتواضع لهما ﴿ **جناح الذل من الرحمة** ﴾ أى من باب التذلل ، وليس من باب الشفقة بهما المجردة من التذلل ، بل أن تكون الرحمة بالوالدين فى شيخوختهما من باب التذلل لهما ، تذلل الرعية للأمير . . ولا يكتف برحمته عليهما التى لا دوام لها ولا بقاء ، ولكن ادع الله تعالى أن يرحمهما رحمة دائمة باقية . . وذلك قوله عز وجل :

﴿ **وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيراً** ﴾ .

وقال النبى ﷺ : (رضا الله من رضا الوالدين وسخطه من سخطهما) .

وروى البخارى أن رجلا سأل النبى ﷺ : أى العمل أحب إلى الله عز وجل ؟ قال ﷺ : (الصلاة فى وقتها) قال الرجل : ثم أى ؟ قال النبى ﷺ : (بر الوالدين) قال الرجل : ثم أى ؟ قال النبى ﷺ : (الجهاد فى سبيل الله) .

فبر الوالدين أحب الأعمال إلى الله تعالى بعد الصلاة فى وقتها . . وأحب إلى الله عز وجل من الجهاد فى سبيله فالبر بالوالدين أحسن الجهاد .

وقال النبى ﷺ : (من أمسى مرضيا لوالديه ، أمسى وأصبح وله بابان مفتوحان من الجنة . ومن أمسى وأصبح مسخطا لوالديه ، أمسى وأصبح وله بابان مفتوحان إلى النار) .

وروى الترمذى عن أنس رضى الله عنه أن النبى ﷺ قال :

(ما أكرم شاب شيخا لسنه ، إلا قيض الله له من يكرمه عند شيخوخته) وروى مسلم فى صحيحه عن ابن عمرو رضى الله عنه قال :

أقبل رجل إلى النبى ﷺ فقال : أبايعك على الهجرة والجهاد أبتغى الأجر من الله فقال النبى ﷺ : فهل من والديك أحد حى ؟ قال . نعم . . بل كلاهما . فقال النبى ﷺ : فتبتغى الأجر من الله ؟ قال نعم قال ﷺ : فارجع إلى والديك فأحسن صحبتهما .

ويأمر الإسلام بالاهتمام بالطفولة وبالشيخوخة على سواء . . مما ليس له نظير فى أى مجتمع غير إسلامى . فقد روى الترمذى عن عمرو بن شبيب عن أبيه عن جده أن النبى ﷺ قال :

(ليس منا من لم يرحم صغيرنا ويعرف شرف كبيرنا) .

ولم يفرض الإسلام عمراً معينا لتقاعد الإنسان عن عمله . . فطالما يستطيع الإنسان أن يعمل وينتج فالمجتمع يفتح له أبواب العمل . . وإن شعر أن صحته تمنعه من ذلك طلب التقاعد من تلقاء نفسه . . ويكفل له بيت المال الحياة الكريمة .

أما فى المجتمعات الصناعية فيحكم على الإنسان بالتقاعد عن عمله . . وقد يكون فى تمام الصحة والقدرة على الإنتاج . . وبذلك يُحرم المجتمع من خبراته وقدراته . . وكم من علماء ومخترعين لم يبدعوا فى مجال علومهم ونشاطاتهم إلا بعد سن الستين . . ولنا فى ألبرت أنيشتاين مثل على ذلك ، فهو من أعظم علماء هذا القرن فى العلوم الرياضية ، ولم يبدع فى فكره وإنتاجه العلمى ، إلا فى شيخوخته .

إن المجتمع الإسلامى هو المجتمع المثالى . . فهو يعطى الطفولة حقها من الاهتمام ويعطى المسنين حقهم من التكريم والاهتمام . . وبذلك يكرم الإسلام الإنسان فى كل طور من أطوار حياته . . وذلك قوله تعالى :

﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِى آدَمَ ﴾ .

وقد يتساءل البعض ؟ هل تشيخ مشاعر الإنسان بتقدم العمر ؟

أن بمرور الزمن تحدث تغيرات فى مشاعر الإنسان . . وهى ليست شيخوخة فى المشاعر . . لأنها تغيرات إلى الأفضل وإلى النضج . . فالإنسان فى طور الشيخوخة يصير أكثر نضوجا ، وأكثر تعقلا ، وأبعد نظراً فى حكمه على الأمور . . فهو لا يستجيب لاندفاعات الشباب وحماسه ، غير المبنية على مبرر معقول فى كثير من الأحوال .

وتبدو للإنسان وهو فى هذا الطور من أطوار حياته ، متع أخرى لم تكن تستهويه من قبل . . ويكبر الإنسان ، ويكبر معه حرصه على ماله وولده ، ويجد فيهما زينة الحياة الدنيا ، فيكبر مع الإنسان فى شيخوخته حب الدنيا ، ويسبقه دائما أمله فى الحياة .

وروى البخارى عن أبى هريرة رضى الله عنه أن النبى ﷺ قال :

(لا يزال قلب الكبير شابا فى اثنتين : حب الدنيا وطول الأمل) .

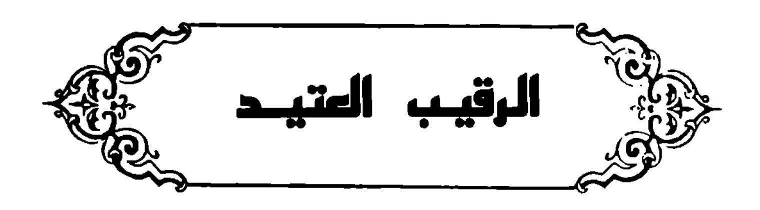
والإنسان فى شيخوخته يصير أكثر حبا للتوقير والاحترام له وأكثر حرصا على ما تبقى من أيام عمره . . ويحاول أن يقضيها بما تمليه عليه نفسه . ويكبر الإنسان

جسما وعمرا ولكن قلبه يظل شابا فى اثنتين : حب الدنيا وطول الأمل . ومن الناس من يتجه فى حب الدنيا إلى الخير ، ومن الناس من يتجه فى حب الدنيا إلى غير ذلك ، تبعا لدرجة الإيمان فى قلبه وروى الترمذى أن النبى ﷺ قال :

(قلب الشيخ شاب فى اثنتين : طول الحياة وكثرة المال) .

فمشاعر الإنسان تصاحبه حتى فى شيخوخته إلا أنها تتغير مع تقدم العمر . . وبعض مشاعر الإنسان تضعف ، وبعض مشاعره تقوى ، وبعض مشاعره تختفى ، إلا أن قلب الإنسان يظل شابا فى شيخوخته فى اثنتين : حب الدنيا وطول الأمل .





الرقيب العتيد

يخبرنا الوحى الإلهى فى القرآن والحديث النبوى ، أن مع كل إنسان فى الدنيا ملكين ، وما يلفظ الإنسان من قول أو يقوم بعمل ، إلا سجله عليه الملكان الموكلان به فى الدنيا . . وذلك لهدف معين ، هو عرض أعمال كل إنسان وأقواله يوم الحساب .

إن وجود الملائكة مع الإنسان حقيقة لاشك فيها . . فالإنسان منذ كونه جنينا فى بطن أمه . . وله مع الملائكة صلات . . ولا يعيش الإنسان بعد ولادته بمعزل عن الملائكة أبداً . . وحتى عند موته تحيط به ملائكة موكلون به فى حالة وفاته . . وبعد وفاته تأتيه ملائكة آخرون موكلون به فى قبره . . فلا يعيش الإنسان أو يموت بمعزل عن الملائكة قط . . والإنسان فى حياته الدنيا معه ملكان عن يمين وعن شمال ، يسجلان أعماله وأقواله ، ولا يغادران منها صغيرة ولا كبيرة .

ولقد أعطانا التقدم العلمى استدلالا علميا على وجود الملكين اللذين يسجلان أعمال الإنسان ، واللذين أخبرنا الوحى الإلهى فى القرآن والسنة عنهما . . فكيف كان ذلك ؟

يقول علم النفس : إن بالإنسان عقلا واعيا وعقلا باطنا . . وشعورا ولا شعور . . وكل ما يمر بالإنسان من أحداث وأقوال تسجل فى العقلين معا ، إلا أن العقل الواعى قد ينسى بمرور الزمن . . أما العقل الباطن فلا ينسى مهما مر زمن ومهما انقضى وقت . . وأى حادث يقع لإنسان فى طفولته ، فإنه يظل محفوظا فى عقله الباطن . . ويحاول الظهور ويعبر عن نفسه من حين إلى حين . . وكأنه حدث فى التو واللحظة . . مهما طال الزمن ، ومهما امتد بالإنسان العمر . . فعمل العقل

الباطن واللاشعور ، لا يخضع لحدود الزمن والمكان كما يخضع العقل الواعى .

ولكن أين العقل الباطن ؟ أهو داخل الجسم أم خارجه ؟ إن خلايا الجسم تموت وتحل محلها خلايا جديدة ، تحمل نفس الصفات ، إلا خلايا المخ . . فالخلايا التى تموت فى الجهاز العصبى لا تحل محلها خلايا جديدة . . لذلك كلما تقدم بالإنسان العمر ، كلما ازداد نسيانا لأحداث الماضى القريب ، فهى قد سجلت فى خلايا فى الدماغ فى شيخوخة فلا تحسن التسجيل . . ولكنه قلما ينسى أحداثا فى الماضى البعيد ، التى سجلت فى خلايا فى الدماغ والخلايا فى شبابها وقوتها وتحسن التسجيل . . وإذا ما سألت إنسانا فى شيخوخته عن حدث بالأمس فربما لا يذكره . . ولكنه لاينسى أحداثا وقعت فى الماضى البعيد .

فهل العقل الواعى فى خلايا الدماغ ، أو له علاقة مباشرة معها ؟ نعم . . لابد أن هناك صلة بين العقل الواعى وخلايا الدماغ ، وهل يكون العقل الباطن فى خلايا الدماغ أيضاً ؟ لا نظن أن ذلك صحيح . . فإن خلايا الدماغ مادية . . فهى تخضع للزمن ، أما العقل الباطن فلا . . فلابد إذن أن يكون منفصلا عن الجسم المادى . . وإذا كانت أفكار الإنسان وأحاسيسه لا تنفصل عنه ، فلابد أن يكون العقل الباطن أو اللاشعور موجودا مع الجسم ، أو مرتبطا به بنوع من الارتباط ، ولكنه مستقل عن مادة الجسم نفسها .

وقد يسأل سائل : أيكون العقل الباطن أو اللاشعور ، هو والنفس البشرية شيئاً واحدا ؟ أو يكون مستكنا فى أعماق النفس البشرية ؟ ربما يكون ذلك صحيحا ، ولكن أين هى النفس البشرية ؟ نحن نعلم أنها شخصية الإنسان الكاملة ، وهى التى تأمر الجسم وهى التى تنهى . . والجسم المادى أداة طيعة فى يدها ، كالسيارة فى يد سائقها . . السيارة هى الجسم المادى ، والسائق هى النفس البشرية . . ولكن أين هى النفس البشرية ؟ وأين هو اللاشعور ؟ إنها أسئلة لا نعرف لها جوابا مؤكدا . . إلا أن ذلك يدل دلالة مؤكدة ، على أن عالما آخر يحيط بكل إنسان أثناء حياته الدنيا . . عالما غير عادى مرتبط بأجسامنا ارتباطا وثيقا . .

ارتباطا لا ندرى كنهة تماما .. وكل أعمال الإنسان ومشاعره وأحاسيسه وأفكاره مرتبطاً تسجل فى العقل الواعى وفى العقل الباطن معا .. وقد يخطىء العقل الواعى أو ينسى .. أما العقل الباطن فلا .

وهذا الموضوع يسوقنا إلى مناقشة قضية أخرى .

إذا كانت أعمال الإنسان وأقواله وأفكاره وما يخفى وما يعلن .. كلها مسجلة فى اللاشعور .. وهو كائن غير مادى ، ومرتبط بنا فى حياتنا الدنيا ، فهل يسجل كل ذلك أيضاً فى وسائل أخرى ؟

لم يكن الناس قديما يعرفون الجواب عن ذلك .. ولكن التقدم العلمى فى عصرنا هذا أعطانا الجواب على هذا التساؤل .. نعم يمكن تسجيل أعمال الإنسان وأقواله وحركاته وسكناته بواسطة آلات التسجيل الصوتى ، أو آلات التسجيل السينمائى ، أو التليفزيونى على شريط .. ويمكن إعادة عرض هذا الشريط على الإنسان نفسه ، أو على غيره من الناس ، بعد مرور سنوات ، فيظهر بصورته وصوته وحركاته وسكناته .. لا يتغير فيها شىء ولا يتبدل ، بل إننا نشاهد أشرطة تليفزيونية مثلاً تعيد عرض مشاهد لإنسان مات منذ زمن بعيد .. فنراه أمامنا بهيئته وصورته ونسمع حديثه ، ونرى حركاته وانفعالاته ، لا يتغير منها شىء صغيرا كان أم كبيرا .. وكأنه موجود معنا فى التو واللحظة .

بل إن أجهزة الإرسال التليفزيونى ، ترسل بصوت الإنسان وأقواله وأفعاله وحركاته عبر الأثير .. فتلتقطها أجهزة الاستقبال فى المنازل ، أو فى أى مكان ، فيرى الناس فى التو واللحظة ، الصورة المرسلة لهم من أقصى الأرض ، أو المسجلة منذ زمن بعيد .. فأجهزة البث التليفزيونى تبث الصور والحركات والكلمات والأفعال ، تبثها فى الأثير ، فتلتقطها الأقمار الصناعية ، وتردها إلى الأرض فى موجات أثيرية ، فتلتقطها أجهزة الاستقبال فى أى مكان على الأرض ، ويشاهدها الناس فى نفس اللحظة .. وتلك الأجهزة تنقل الحركات والسكنات والأقوال والأفعال .. ولا تغادر منها شيئا مهما كان صغيرا .

وتوصل العلماء إلى حقائق مثيرة ، وهى أن كل حركة وكل صوت ، يظل فى الأثير ولا يتلاشى أبدا .. ولو استطاع العلماء اختراع آلة تجمع تلك الموجات الأثيرية الخاصة بإنسان معين .. فإنه من الممكن أن نستمع إلى أصوات الذين ماتوا منذ آلاف السنين .

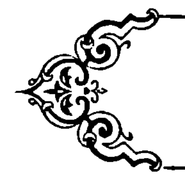
نفهم من كل هذا الحديث ، أن صوت الإنسان وحركاته وسكناته وأفعاله وأقواله ، تسجلها أجهزة استطاع الإنسان أن يصنعها .. ويمكن إعادة عرضها مرات ومرات ، ولو بعد سنوات وسنوات .

إنها حقائق علمية ، لو أخبرنا بها إنسانا عاش فى القرن الماضى ، ما صدّق أبداً ، ولقد أعانتنا تلك الاكتشافات العلمية الحديثة إلى تفهم بعض أوجه العلم فى بعض آيات القرآن العظيم ، والأحاديث النبوية المشرفة والتى تخبرنا أن أعمال الإنسان يسجلها عليه ملكان فى الدنيا ، لتعرض عليه يوم الحساب .. لتكون حجة عليه فى هذا اليوم العصيب .

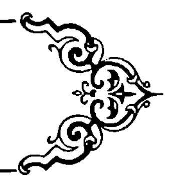
وإذا كان الإنسان قد استطاع أن يسجل بآلات يصنعها هو ، أعمال وأقوال وحركات إنسان مثله على شريط تليفزيونى أو سينمائى . ويعيد عرضها بعد سنوات وسنوات .. فإن الله تبارك وتعالى أقدر من خلقه على تسجيل أعمال الإنسان وأقواله ، وإعادة عرضها عليه يوم الحساب .. ونقرأ فى سورة ق ١٦ ـ ١٨ قول الله عز وجل :

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ . إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ . مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴾ .

فالملكان الموكلان بكل إنسان منا فى الدنيا ، يكتبان ويسجلان كل لفظ ، وكل حركة ، وكل فعل للإنسان ، بهدف العرض عليه يوم الحساب .. وبذلك يقيم الله تعالى الحجة على الإنسان من نفسه .



الرقيب العتيد والقرين



ذكر لنا القرآن العظيم حقيقة الرقيب العتيد ، وعلاقته بالإنسان فى سورة ق ١٧ ـ ١٨ فى قول الله عز وجل : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ • إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ • مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴾ الوسوسة : هى حديث النفس بما لا يعبر عنه اللسان .

وحبل الوريد : تعبير لغوى عن نفس الإنسان وقلبه ، فالله عز وجل أقرب إلى الإنسان من نفسه وقلبه . المتلقيان عن اليمين وعن الشمال قعيد : هما الملكان يتلقيان أعمال الإنسان ، أحدهما عن يمينه يكتب الحسنات . . والآخر عن شماله يكتب السيئات . . وقعيد بمعنى قاعد . . ولم يقل قعيدان وهما اثنان . . لأن المراد القول : عن اليمين قعيد ، وعن الشمال قعيد . . فحذف الأول لدلالة الثانى عليه . . وقال رسول الله ـ ﷺ :

(كاتب الحسنات على يمين الرجل وكاتب السيئات على شماله . . وكاتب الحسنات أمين على كاتب السيئات ، فإذا عمل حسنة كتبها صاحب اليمين عشرا . . وإذا عمل سيئة قال صاحب اليمين لصاحب الشمال : دعه سبع ساعات لعله يسبح أو يستغفر) . ﴿ مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴾ : أى لا يتكلم الإنسان بشىء إلا كتب عليه . والله تعالى أعلم فلا يحتاج الأمر إلى ملك يخبر . . ولكن الله عز وجل وكلهما بالإنسان إلزاما للحجة عليه . . والرقيب : هو المتتبع للأمور والشاهد والحافظ عليها . . والعتيد : الحاضر الذى لا يغيب ، والحافظ المعد للحفظ .

وقال أبو الجوزاء ومجاهد : يكتب على الإنسان كل شىء حتى الأنين فى مرضه وروى أنس ـ رضى الله عنه أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال :

(ما من حافظين يرفعان إلى الله ما حفظا ، فيرى الله فى أول الصحيفة خيراً ، وفى آخرها خيراً ، إلا قال الله تعالى لملائكته : اشهدوا أنى قد غفرت لعبدى ما بين طرفى الصحيفة) .

ويقول الله عز وجل فى سورة ق ١٨ :

﴿ مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ • وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ • وَنُفِخَ فِي الصُّورِ ذَلِكَ يَوْمُ الْوَعِيدِ • وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ • لَّقَدْ كُنتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ • وَقَالَ قَرِينُهُ هَذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ ﴾ .

فالإنسان فى يوم الحساب يأتى ملك يسوقه وملك يشهد عليه . . والإنسان على نفسه شهيد أيضا . . وقد يكون ملكا واحداً جامعاً بين الأمرين سائقا وشهيداً . . لقد كان الإنسان فى حياته الدنيا فى غفلة من هذا الموقف العظيم يوم الحساب . . وحينئذ يكشف عن الإنسان الغطاء ، فإذا ببصره أكثر حدة ومضاء . . والمراد به البصيرة . . ونقرأ فى السنة حديثا لرسول الله ـ ﷺ ـ يقول :

(إن الرجل ليتكلم بالكلمة من رضوان الله تعالى ما يظن أن تبلغ ما بلغت ، يكتب الله عز وجل له بها رضوانه إلى يوم يلقاه ، وإن الرجل ليتكلم بالكلمة من سخط الله تعالى ما يظن تبلغ ما بلغت ، يكتب الله عليه بها سخطه إلى يوم يلقاه) .

فما يلفظ أى إنسان من قول إلا ويسجل عليه ، وسوف يعرض عليه يوم الحساب ليحاسب بمقتضاه . وسوف يشهد على نفسه كما يشهد الملك عليه أيضا ، وقال الزمخشرى فى تفسيره : المعنى أن ملكا يسوقه ، وآخر يشهد عليه ، وشيطانا مقرونا به يقول : لقد أعدته لجهنم وهيأته لها بإغوائى وإضلالى . . ويقول للملكين : ألقياه فى جهنم كما قال الله عز وجل فى سورة ق ٢٣ ـ ٢٩ .

﴿ أَلْقِيَا فِى جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ • مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُّرِيبٍ • الَّذِى جَعَلَ مَعَ اللَّهِ إِلَـٰهًا آخَرَ فَأَلْقِيَاهُ فِى الْعَذَابِ الشَّدِيدِ • قَالَ قَرِينُهُ رَبَّنَا مَا أَطْغَيْتُهُ وَلَكِن كَانَ فِى ضَلَالٍ بَعِيدٍ . قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا لَدَىَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بِالْوَعِيدِ • مَا يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَىَّ وَمَا أَنَا بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ ﴾ .

الآية الكريمة تتحدث عن القرين . . فما هو القرين ؟ هل هو ملك موكل بالإنسان فى الدنيا . . أم هو شيطان يلازمه ؟ . . الظاهر أن كلا الرأيين صحيح . فقد قال الحسن : إن القرين هو ملك موكول بالإنسان فى الدنيا . وقال مجاهد : إن القرين هو شيطان قُيضَ للإنسان .

ولقد جاء ذكر القرين فى القرآن الكريم فى ستة مواضع ، متصفا فيها جميعا بالعداء للإنسان كما فى سورة النساء ٣٨ فى قول الله تعالى : ﴿ وَمَن يَكُنِ الشَّيْطَانُ لَهُ قَرِيناً فَسَاءَ قَرِينا ﴾ وفى سورة الزخرف ٣٦ يقول تعالى :

﴿ وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ الرَّحْمَـٰنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَاناً فَهوَ لَهُ قَرِينٌ • وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ • حَتَّى إِذَا جَاءَنَا قَالَ يَالَيْتَ بَيْنِى وَبَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ الْقَرِينُ ﴾ وفى سورة ق يقول الله تعالى :

﴿ وَقَالَ قَرِينُهُ هَذَا مَا لَدَىَّ عَتِيدٌ ﴾ وقال تعالى أيضا : ﴿ قَالَ قَرِينُهُ رَبَّنَا مَا أَطْغَيْتُهُ وَلَكِن كَانَ فِى ضَلَالٍ بَعِيدٍ ﴾ .

وفى سورة الصافات ٥٠ ـ ٥١ قال تعالى : ﴿ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَساءَلُونَ . قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّى كَانَ لِى قَرِينٌ ﴾ فما هو القرين ؟ يقول العلماء إن لكل مخلوق فى الوجود قرينا حتى الجماد له قرين . . وقال بعض علماء الفلك ، إن الشمس كنجم كان له قرين ، وانفجر ، ومنه تكونت الكواكب السيارة . ودليل ذلك أن مكونات الكواكب السيارة مختلفة عن مكونات الشمس .

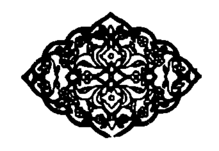
والقرين فى اللغة هو نقيض الشىء .

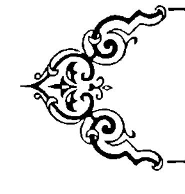
فى سنة ١٩٦٩ سقط نيزك من السماء على الأرض فى استراليا . . ووضعته مؤسسة أبحاث الفضاء الأمريكية فى كاليفورنيا تحت الدراسة عاما كاملا ، فوجدوا

أن بالنيزك أحماضا أمينية . . مما يدل على وجود حياة بصورة ما فى الكواكب الأخرى . . والنيازك تسقط على الأرض بالآلاف كل يوم . . وتحمل لنا جانبا من أنباء الكون . . واكتشف العلماء فى نيزك استراليا أن الأحماض الأمينية أحماض يمنى ، نقيضه للأحماض الأمينية الموجودة فى كوكب الأرض ، والتى هى أحماض أمينية يسرى . . ومثال على ذلك ، صورة أى إنسان فى المرآة أنها نفس صورته . . ولكن اليسار يكون يمينا . . واليمين يكون يسارا . . والقرين كذلك . . إنه على نفس صورة كل إنسان منا ، ولكن يميننا فى القرين يسار ، ويسارنا فى القرين يمين .

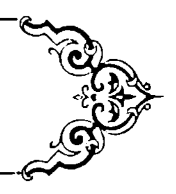
نفهم من كل ذلك ، أن لكل إنسان منا ملائكة موكلين به فى حياته الدنيا ، يسجلون عليه كل أفعاله وأقواله . . ومعه أيضا قرين من الجن يلازمه ويأمره بالشر ويوسوس إليه به . . وما الدليل على ذلك ؟ الدليل ما رواه مسلم والإمام أحمد ، عن سالم بن أبى الجعد ، عن عبد الله أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال : (ما منكم من أحد إلا وقد وكِّل به قرينه من الجن وقرينه من الملائكة) ، وروى مسلم فى صحيحه عن صدقة بن يسار عن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال : (إذا كان أحدكم يصلى فلا يَدَعْ أحداً يمر بين يديه ، فإن أبى فليقاتله فإن معه القرين) .

وقرين الإنسان من الملائكة ، يأمره بالخير ويحثه عليه ، وقرينه من الشياطين ، يأمره بالشر ويحثه عليه .





تراب يعود إلى تراب[1]



كل شيء فى هذا الكوكب . . خلق من ذرات . . والذرات فى كل المخلوقات ، هى هى لاتتغير صفاتها ولاخواصها ، مهما اختلف نوع الخلق . . فذرة الهيدروجين الموجودة فى طبقات الجو العليا ، تتماثل تماما وذرة الهيدروجين الموجودة فى ورقة نبات ، أو فى حبة رمل . وذرة الأوكسيجين الموجودة فى قطرة ماء ، تتماثل تماما وذرة الأوكسجين الموجودة فى قطعة من خبز ، أو فى خلية فى جسم حشرة ، أو خلية فى جسم طير من الطيور .

فالذرة هى لبنةٌ فى بناء كل خلق من المخلوقات . . والأبنيةُ فى الأرض مثلا تختلف أشكالها وأحجامُها ومقاصدُها . . ولكنها جميعا مكونة من لبنات متماثلة تمام التماثل . . إلا أنها تختلف فى المكان والارتباط بغيرها . . وإذا هدمت عمارة مثلا فمن الممكن أن تستعمل لبناتها فى بناء بنيان جديد . . وعلى شكل جديد ، أو تتحول إلى تراب ، تصنع منه لبنات أخرى جديدة . . وكذلك تتركب أجسام المخلوقات جميعا . . وما أن تموت حتى تعود ترابا . . وتعود الذرات المكونة لأجسامها للتراب . . ومن التراب يخلق خلق جديد .

إن نظام المخلوقات فى الكون كله ، نظام واحد ، لاتفاوت فيه ولا اختلاف . . كما فى سورة الملك ٣ فى قوله تعالى (مَاتَرَى فِى خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَاوُتٍ) ولا شك أن وحدة النظام فى الخلق . . دليل على وحدانية الخالق تعالى . . ولنأخذ خلق جسم الإنسان مثلا على ثبات سنة الخلق ، ووحدة نظامه .

فجسم الإنسان خُلق من ذرات .

ولكن أين كان جسم الإنسان قبل حياته الدينا ؟ . . إنه خلق من تراب الأرض . . وسيعود إلى تراب الأرض . . لأن كل العناصر المكونة . للجسم موجودة جميعها فى التراب . . ولقد حدثنا القرآن العظيم عن هذه الحقيقة فى سورة الحج / ٥ قال الله تعالى :

﴿ يَاأَيُّهَا النَّاسُ إن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِن تُرَابٍ ﴾

وجسم أى إنسان منا ، تموت فيه آلاف الملايين من الخلايا كل ساعة ، وتعود إلى تراب . . وتتكون فى نفس الوقت ، خلايا وليدة جديدة تحل محل الخلاياالتى ماتت وتحولت إلى تراب . . ويظل جسم الإنسان فى حياة مستمرة . . وبناء جسمه يتجدد إلى ماشاء الله .

وإذا فكرنا فى نظام خلق جسم الإنسان ، لوجدناه مشابها لنظام المجرات فى الفضاء الكونى . . ففى أى مجرة تفنى نجوم كثيرة وتتحول إلى غبار كونى . . يعود إلى مركز المجرة من جديدة حيث تتكون منه نجوم وليدة جديدة ، تنتشر فى الفضاء . ويحتويها الزمن ، فتصيبها الشيخوخة بعد ذلك وتفنى وتعود إلى غبار كونى وهكذا . . فمع موت النجوم وإعادة خلقها . . تبقى المجرة فى حياة مستمر ومتجددة إلى ماشاء الله .

وهذا هو أيضا نفس النظام فى الخلق كله . . إنه قانون واحد وفطرة متماثله ، وخالق واحد ليس كمثلة شيء .

الإنسان كان ترابا قبل خلقه فى الدنيا ، فى أحسن تقويم . . ولكن أين كان هذا التراب الذى خُلق منه جسم أى إنسان منا قبل خلق الأرض نفسها ؟ . . إنه كان فى الفضاء الكونى . . فى السديم . . من ذرات تحتل من السماء الدخانية الأولى حجما أكبر من حجم الأرض . . وتكونت الأرض من السديم الكونى . . وكان التراب الذى خلق منه جسم أى إنسان منا ، من ضمن تراب الأرض . . ومن تراب الأرض خلقت كل الكائنات الحية من إنسان وحيوان وطير ونبات . . كلها من تراب . . وفى نهايتها نعود إلى تراب . ومن التراب ينشأ خلق جديد .

ورب ذرة فى جسم إنسان منا . كانت فى صخرة فى جبل . . أو فى ورقة شجرة . . أو قطرة ماء مطر . . أو فى جسد سمكة من الأسماك . . وتجمعت ذرات من العديد من المصادر . . وأراد لها الخالق تعالى أن تكون فى بناء جسم واحد منا فكانت . وبعد أن يموت الجسم يعود تراباً مرة أخرى . .

وفى بعض الأحوال وتحت ظروف معينة . . تتوقف حالات التحلل فى الأجسام الميتة إلى تراب . . وبمرور زمن طويل تستبدل مكونات الجسم بمواد أخرى . . مثل بعض الرواسب الصخرية .

ويقول علماء الجيولوجيا إن بقايا الأجسام تتحجر ، دون أن يحدث لها تغير فى التركيب الكيماوى لموادها الأصلية . . نتيجة لفقدان المادة العضوية فى تلك الأجسام ، وتبقى المواد غير العضوية فقط . . . ويستغرق ذلك زمنا طويلا . . ويلاحظ علماء الجيولوجيا ، أن بعض أجسام المخلوقات الحية ، وبعض الأشجار المدفونة فى صخور الأرض . . تتحجر مع احتفاظها بشكلها المميز لها . . غير أن مادتها صارت مكونة من صخور السليكون . . بدلا من المواد العضوية التى كانت فيها . . ويسمون تلك الأجسام المتحجرة « الأحافير » . . فالأحافير هى بقايا أجسام الكائنات الحية ، أيا كانت تلك الكائنات ، بعد دفنها فى الأرض فى عصور جيولوجية قديمة ، وتحولها إلى أجسام متحجرة فى الصخور الرسوبية . . وتتكون أنواع أخرى من الأحافير ، تستبدل فيها المواد العضوية فى أجسامها ليس بصخور السليكون . . ولكن بالأملاح المعدنية . . فيصير الجسم معدنا كمعدن الحديد . . وكيف يحدث ذلك ؟

يقول العلماء إنه تحت ظروف جيولوجية معنية ، يستبدل كل جزئى من المواد العضوية فى الجسم المدفون ، بجزءين من مادة معدنية فى صخور الأرض ، فيصير الجسم أحفورة معدنية . . ولما كان معظم صخور الأرض من معدن الحديد . . فإن تلك الاحافير تكون أحافير من حديد .

. . ومعدن الحديد ليس هو الحديد الذى نعرفه فى صناعة السيارات أو القضبان

الحديدية . . كلا . . فهذا هو (فلز الحديد) . . ولكن معدن الحديد هو المواد الطبيعية المكونة لمعظم صخور الأرض ، مثل أكسيد الحديد المائى وأكسيد الحديديك وكربونات الحديد . . فصخور الأرض وترابها خليط من عدة معادن ، وتقوم المياه الجوفية باستبدال المواد العضوية فى الأجسام الميتة المدفونة فى التراب بالمواد الموجودة فى التراب . . فإن استبدلتها بكربونات الكالسيوم أو السيلكا صارت الأجسام حجارة . . وإن استبدلتها ببعض المعادن فى صخور الأرض كمعدن الحديد . . صارت الأجسام حديدا .

وما يحدث لأجسام النباتات والكائنات الحية جميعا . . يحدث لجسم الإنسان بعد موته ودفنه فى تراب الأرض .

١ ـ يتحول أولا إلى تراب .

٢ ـ وإذا حدثت ظروف جيولوجية معينة صارت الأجسام أحفورة من حجارة .

٣ ـ وإذا حدثت ظروف جيولوجية أخرى صارت الأجسام أحفورة من حديد . .

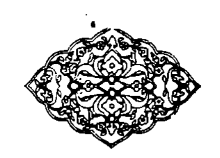
ويتساءل الكافرون كيف سيبعثهم الله خلقا جديدا بعد أن تتحول أجسامهم إلى تراب فى الأرض ، وبعد ملايين السنين ؟ فيتحداهم الله تبارك وتعالى بأنه سيبعثهم خلقا جديدا ، ليس بعد تحول أجسامهم إلى تراب فحسب ، ولكن بعد أن تتحول أجسامهم إلى أحافير من حجارة ، أو أحافير من حديد فذلك قول الله تعالى فى سورة الإسراء ٤٩ .

﴿ وَقَالُوا أَإِذَا كُنَّا عِظَاماً وَرُفَاتاً أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقاً جَدِيداً • قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيداً . أَوْ خَلْقاً مِّمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِى فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَى هُوَ قُلْ عَسَى أَن يَكُونَ قَرِيباً • يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلاَّ قَلِيلاً ﴾ .

ولم يكن القدامى يعلمون شيئا عن الأحافير . . فإذا تكلم القرآن العظيم عن مصير الأجسام الحية مما لم يكتشفه علم الجيولوجيا إلا حديثا ، فإن ذلك دليل على

أن القرآن العظيم ، رسالة من الله عز وجل ، إلى البشر جميعا ، فى كل عصر من العصور ، من يوم نزوله وإلى يوم القيامة . . يحدثهم . . ويهديهم إلى سواء السبيل على قدر ما تطيق عقولهم . . وتستوعب أفكارهم .

والله عز وجل هو الذى خلق الناس وهو الذى يميتهم . . وهو الذى يحييهم وإليه يرجعون .



تـراب يعـود إلى تـراب (٢)

لقد خلق جسم الإنسان من تراب هذه الأرض لا شك فى ذلك . . كما قال الله تعالى فى سورة الحج ٥ : ﴿ يَاأَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن تُرَابٍ ﴾ .

وفى حديث نبوى شريف رواه الترمذى وأبو داود وأحمد أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال فيه : (والناس بنو آدم وخلق الله آدم من ترابٍ) .

فآدم خلق من أديم هذه الأرض . . فهو سُمى بما خُلق منه ، وتحدثنا عما يحدث لجسم الإنسان بعد موته ، وقلنا إنه يتحول أولاً إلى تراب . . وقد يظل فى مكانه أو يتشتت هنا وهناك ، فقد يصير فى قمة جبل أو فى قاع بحر أو جزء من صخرة . . أو يصير ترابا فى الطرقات ، وفى سقط الزند كتب أبو العلا المعرى قصيدة مطلعها :

غيـر مجـد فى ملتى واعتقـادى   نـوحُ بـاكٍ أو تـرنـم شـاد
وشـبـيـهٌ صـوت الـنـعـى إذا   قيس بصـوت البشيـر فى كـل نـاد
أبـكت تـلكم الـحـمـامـة أم غـنت عـلى فـرع غـصـنهـا الـمـيـاد
صـاح : هـذى قبـورنـا تمـلأ الـرحب فـأين القبـور من عهـد عـاد ؟
خـفـف الـوطـأ مـا أظـن أديم الأرض إلا مـن هـذه الأجـسـاد
وقـبـيـح بـنـا وإن قـدم الـعـهـد هـوان الآبـاء والأجـداد
سـر إن اسـطعت فى الهـواء رويـداً   لا اختيـالا عـلى رفـات الـعبـاد
رب لحـد قـد صـار لحـداً مـراراً   ضـاحـك مـن تـزاحـم الأضـداد

إن جسم الإنسان عندما يموت ، شأنه شأن أى خلق من المخلوقات الحية

جميعاً ـ يتحول إلى تراب ، وبفعل عوامل التعرية ، من مطر ورياح ومياه وغير ذلك ، فإن التراب يتبعثر هنا وهناك ، ولا يظل فى مكانه الذى دُفن فيه . . ويعلم الكافرون ذلك ، ولكنهم لا يصدقون ما يحدثهم الله تعالى به من الحق . . فتقرأ فى سورة السجدة ١٠ قول الله تعالى : ﴿ وَقَالُوٓاْ أَءِذَا ضَلَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍۭ بَلْ هُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ كَـٰفِرُونَ ﴾ .

أإذا ضللنا فى الأرض : أى أإذا تشتت أجسامنا ترابا بعد الموت فى كل مكان فى الأرض ، أإنا لفى خلق جديد ؟ أى انبعث بعد ذلك خلقا جديدا ؟

وفى سورة سبأ ٧ ـ ٨ يقول الله تبارك وتعالى :

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ . أَفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَم بِهِۦ جِنَّةٌۢ بَلِ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ فِى ٱلْعَذَابِ وَٱلضَّلَـٰلِ ٱلْبَعِيدِ ﴾ .

وكان رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ علما مشهوراً فى قريش ، وكان إنباؤه بالبعث بعد الموت معروفا للجميع ، فما معنى قوله تعالى : ﴿ هل ندلكم على رجل ينبئكم ﴾ : إنهم قصدوا أن ينكروه ، ويعرضوا عليهم الدلالة عليه ، كما يُدلُّ على مجهول فى أمرٍ مجهول . . يريدون بذلك ـ لعنهم الله ـ الهزؤ به والسخرية . . إذا مزقتم كل ممزق إنكم لفى خلق جديد : أى مزقت أجسادكم ، وبليت وفُرقت كل تفريق فى تراب الأرض .

والله تبارك وتعالى قادر على جمع ذلك الشتات ، وقادر على خلقه مرة أخرى جسما كما كان . . وقد يكون ذلك من بعض المعانى فى سورة القيامة /٣ فى قوله تعالى : ﴿ أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَـٰنُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُۥ ﴾ ، والجمع لا يكون إلا لشىء تبعثر وتشتت . ويتعجب سيدنا إبراهيم ـ عليه السلام ـ ويتساءل . . سؤال المصدِّق المؤمن ـ كيف يحيى الله الموتى وقد تشتت أجسامهم . . كما فى سورة البقرة ٢٦٠ فى قول الله جل جلاله :

﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِى كَيْفَ تُحْيِ الْمَوْتَى قَالَ أَوَ لَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بلَى وَلَكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِنَ الطَّيْرِ فَصرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَى كُلِّ جَبلٍ مِنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْياً وَاعْلَمْ أَنَّ اللهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ .

نلاحظ من الآية الكريمة ، أن النبى إبراهيم ـ عليه السلام ـ لم يُنْكِرْ قدرة الله على الإيجاد ، ولكنه سأل عن كيفية حدوث الإيجاد . فلم يكن النبى إبراهيم ـ عليه السلام ـ شاكاً فى إحياء الموتى قط ، وإنما طلب المعاينة ، وذلك أن النفوس مستشرقة إلى رؤية ما أخبرت به . . فقد أبصر بقلبه فأراد رؤية العين . وسأل ليزداد يقيناً إلى يقينه .

﴿ قَالَ بَلَى وَلَكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى ﴾ : أى سألتك ليطمئن قلبى بحصول الفرق بين المعلوم برهاناً ، والمعلوم عيانا .

ويتساءل الكافرون كيف يبعث الله من التراب والعظام جسداً حياً جديداً؟

وفى ذلك نقرأ فى سورة الواقعة ٤٧ ـ ٥٠ ، قول الله سبحانه :

﴿ وَكَانُوا يَقُولُونَ أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَاباً وَعِظَاماً أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ . أَوَ آبَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ . قُلْ إِنَّ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ . لَمَجْمُوعُونَ إِلَى مِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴾ .

وفى سورة يس ٧٨ ـ ٧٩ يقول الله تعالى :

﴿ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً وَنَسِىَ خَلْقَهُ قَالَ مَن يُحْيِ الْعِظَامَ وَهِىَ رَمِيمٌ . قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِى أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴾ .

﴿ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً وَنَسِىَ خَلْقَهُ ﴾ : أى نسى أنا أنشأناه من نطفة لأحياة فيها ، فركبنا فيها سر الحياة ، ونفخنا فيها الروح ، أى إن جواب الكافر السائل من نفسه حاضر . . وقيل إن سبب نزول الآية أن عبدالله بن أبى أتى النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ بعظم حائل فقال : يا محمد أترى أن الله يُحيى هذا بعدما رمَّ ؟ . . ففهم رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قصده ، وقال له : [نعم ويبعثك الله ويدخلك النار] ، فنزلت الآية .

ففى هذا دليل على صحة القياس ، لأن الله جل جلاله احتج على منكرى البعث بالنشأة الأولى فقال : ﴿ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً وَنَسِىَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِ الْعِظَامَ وَهِىَ رَمِيمٌ ﴾ . أى بالية ، فنزل قوله تعالى : ﴿ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِى أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴾ فهو الله الذى أنشأها أول مرة من غير شىء . . فهو قادر على إعادتها فى النشأة الثانية من شىء وهو التراب . . ﴿ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴾ : أى كيف يُبدىء ويعيد .

وتحول جسم الإنسان إلى تراب بعد الموت ، موضوع كان يُشغل بال الكفار ، وكانوا ينكرون حقيقة البعث بعد الموت . . فى سورة المؤمنون ٣٥ ـ ٣٨ جاء ذكر إنكار الكفار للبعث فى قول الله تعالى : ﴿ أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنْتُمْ تُرَاباً وَعِظَاماً أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ • هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ • إِنْ هِىَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ • إِنْ هُوَ إِلاَّ رَجُلٌ افْتَرَى عَلَى اللهِ كَذِبًا وَمَا نَحْنُ لَهُ بِمُؤْمِنِينَ ﴾ .

والمعنى : ﴿ أيعدكم أنكم مخرجون إذا متم ﴾ هيهات هيهات : كلمة للبعد . . كأنهم قالوا بعيداً ما توعدون . ﴿ إِنْ هِىَ إِلاَ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا ﴾ . . وكيف قالوا نموت ونحيا وهم لا يقرون البعث ؟ . . الكلام فيه تقديم وتأخير : أى إن هى إلا حياتنا الدنيا نحيا فيها ونموت . . كما قال : ﴿ واسجدى واركعى ﴾ والمعنى (اركعى واستجدى) فالركوع قبل السجود . وهذا أسلوب من أساليب البلاغة فى اللغة .

وفى سورة ق ٢ ـ ٤ : ﴿ بَلْ عَجِبُوا أَن جَاءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ فَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا شَىْءٌ عَجِيبٌ • أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَاباً ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ • قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِندَنَا كِتَابٌ حَفِيظٌ ﴾ .

فى الآية إضمار يُعرف من سياق الحديث ، وهو البعث بعد الموت ، فكأن المعنى : أإذا متنا وكنا ترابا ، أنبعث من جديد ، ذلك رجع بعيد . . فضمرت حقيقة البعث بعد الموت لأن سياق الحديث يدل عليه . .

ذلك رجع بعيد : الرجع الرد . . أى هو رد بعيد أى محال .

أى : أحين نموت وتفنى أجسامنا نرجع ؟ . . ذلك رجع بعيد مستبعد مستنكر ومحال . . ﴿ قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ ﴾ : أى ما تأكل من أجسادهم فى البلى . . نعلم ذلك ولا يخفى علينا أين تفرقت الأبدان ، وأين ذهبت ، وإلى أى شىء صارت . (وعِنْدَنَا كِتَابٌ حَفِيظٌ) : أى حافظ لكل ذلك من العلم الشامل .

نفهم مما سبق حقيقة تحول الأجسام بعد موتها إلى تراب يختلط بتراب هذه الأرض . . وقد يتبعثر هنا وهناك . . ويضل فى الأرض . . ويتمزق كل ممزق . . أو تتحول الأجسام إلى أحافير من حجارة أو حديد ، والله تعالى قادر على إعادة الخلق يوم البعث والحساب . .

وغنى عن البيان ، أن الإنسان لا يتحول إلى تراب بعد موته . . فالذى يتحول إلى تراب هو الجسم فقط . . أما النفس فلا تبلى وإنما تعود إلى ربها ، وأما الروح فلا يموت فهو من أمر الله ـ عز وجل ـ . .

فالإنسان كنفس بشرية لا ينتهى أو يصير إلى العدم . . وإنما هو يعيش فى الحياة الدنيا، وبعد ذلك ينتقل من الحياة الدنيا إلى الحياة الأخرى الذى لا يموت بعدها أبداً . . ويستقر الإنسان فيها ، فى آخر طور من أطوار خلقه ، إما فى الجنة فى نعيم دائم ، وإما فى النار فى عذاب مقيم .



الموضــوع	الصفحــة

فـــى هـــذا الكتـــاب

- الحديث عن أطوار خلق الإنسان فى تاريخه الطويل ودورات الموت والحياة التى يمر فيها .
- مناقشة بعض النظريات العلمية التى تحدثت عن بعض أطوار خلق الإنسان وبيان الصحة فيها والخطأ .
- الحديث عن أطوار خلق آدم وزوجه وأطوار خلق الإنسان قبل الحياة الدنيا .
- وصف أطوار خلق الإنسان فى حياته الدنيا وماحدث فى كل طور فيها من احداث وتغيرات .
- بيان المنهج الصحيح فى دراسة الغيبيات وانه لا مجال لاجتهاد الإنسان فيها .. وأن الحقائق العلمية والغيبية لا تستخلص إلا من مصدر العلم الوحيد عنها وهو القرآن والحديث النبوى .

الدكتور أحمد شوقى إبراهيم

- تخرج فى كلية الطب جامعة القاهرة ـ بكالوريوس الطب والجراحة ١٩٥٢ .
- حصل على دبلوم الأمراض الباطنية من انجلترا .
- حصل على دبلوم طب المناطق الحارة من انجلترا .
- حصل على عضوية كلية الأطباء الملكية بلندن وأدنبرة ١٩٧١ .
- عمل استشارياً للأمراض الباطنية والقلب بمستشفيات وزارة الصحة بالكويت حتى عام ١٩٩٠ .
- يعمل حاليا رئيساً للمجلس الطبى لمستشفى ابن سينا التخصصى بالدقى ورئيساً واستشاريا للأمراض الباطنية والقلب بها .
- له اثنان وعشرون بحثاً طبياً نشرها بالمجلات الطبية العربية والأجنبية والقى بعضها فى المؤتمرات العلمية العربية والأجنبية .

مطابع روزاليوسف الجديدة